سياسة التهجير في عهد الخليفة عبد الله

عثمان محمد عثمان

مدخـــل

كانت سياسة التهجير التى طبقهـا الخليفة عبد الله بالنسبة لمختلف القبـائل والمجموعات ، ولاسباب بعضها عام وبعضها خاص ، من أهم معالم حكمه • وتكاد كل المصادر التى تعرضت لتاريخ المهدية تكون قد تعرضت لهذه السياسة • وقد وصفت بعض هذه المصادر عمليات التهجير وصفا تفصيليا دقيقا(١) ولذلك فليس من المفيد أو الممكن فى هذا البحث الصغير أن نعود الى سرد الحوادث المتصلة بحركة التهجير ولذا فان مناقشتنا ستنصب على أسباب وأهداف تلك السياسة وطريقـة تطبيقهـا وسماتها العامة ونتائجها •

وفى سبيل رسم الخلفية التاريخيـة المناسبة لدراسة هذا الموضوع فان البحث يبدأ بمناقشة مختصرة جدا للحركات السكانية فى السودان قبل المهدية ثم مقدمة

---

١ ـ بالاضافة الى الكتب المطبوعة انظر رسائل الماجستير التـالية : ـ

١ ـ عوض عبدالهادى « تاريخ كردفان السياسى فى عهد الخليفة عبد الله ١٨٨٥ ـ ١٨٩٨ » الخرطوم، ابريل ١٩٧١ ، الفصل الاول ص ٥٠ ، الفصل الثانى ص ٨٢ ، الفصـل الثالث ص ٩٣ ، والفصل الرابع ص ١١٤ .

٢ ـ احمد عثمان ابراهيم « الجزيرة فى خلال المهدية ١٨٨١ ـ ١٨٩٨ » الخرطوم ، سبتمبر ١٩٧٠ . الباب الثالث الرابع ص ١١٥ ـ ١٨٤ .

٣ ـ صلاح التجانى «المهدية فى شرق السودان» عثمان دقنه والخليفة عبد الله ـ الخرطوم ١٩٦٧ : الفصل الاول والثالث .

٤ ـ محمد سعيد القدال : « منطقة القضارف ـ القلابات فى عهد المهدية : دراسة فى السياسـة الداخلية والخارجية لدولة المهدية » ١٨٨١ ـ ١٨٩٨ ص ٤٤ ، ٨٨ ، ٩١ ، ١٥٠ .

٥ ـ محمود عبد الله ابراهيم : حملة الامير محمود ود احمد الى الشمال ١٣١٥هـ ـ ٩٧ ـ ١٨٩٨ الخرطوم ، الفصل الرابع .

انظر ايضا : موسى المبارك ، تاريخ دارفور السياسى ١٨٨٢ ـ ١٨٩٨ ، قسم التاليف والنشر ، جامعة الخرطوم ، الفصل الثانى ٩ ص ٦٩ ـ ٧٨ ، الفصـل الثالث والرابـع والخامس والسادس ص ٩٢ ـ ٨١ .

مختصرة أيضا عن الثورة المهدية بصفة عامة ويعقب ذلك فى مستوى مشابه من الاختصار الحديث عن حركات الهجرة فى عهد المهدى وبذلك نكون قد كونا مدخلا مناسبا للموضوع •

١ ـ الهجرات والتحركات السكانية فى السودان قبل الثورة المهدية

كان للموقع الجغرافى الذى يحتله الاقليم الذى يحمل اليوم مع تعديلات يسيرة ـ إسم جمهورية السودان الديمقراطية ، ولخواصه الجغرافية الاخرى خاصة الظروف « الطبوغرافية والمناخية » أثر كبير فيما تميز به هذا الاقليم طوال تاريخه الحافل من تحركات سكانية كانت ذات أثر كبير فى تكوينه البشرى الحالى وفى تطوره التاريخى • فالموقع من حيث العلاقات الخارجية ، جعل هذا الاقليم ذا اتصالات مستمرة مع مختلف الاقاليم التى تحيط به ومن هنا كانت حركة السكان سهلة فى معظمها لان اطراف هذا الاقليم تعتبر ـ فى الغالب امتدادات طبيعية للاقاليم المجاورة ورغم وجود بعض العوائق الطبيعية فى بعض المناطق الا ان هذه لا تشكل حواجز صارمة بين الاجناس والسكان •

أما داخل هذا الاقليم فانه رغم وجود بعض العوائق الطبيعية مثل سدود الجنوب وصحارى الشمال الا أن النسق العام هو السهولة النسبية للتحركات السكانية • ولذلك فان بعض المجموعات السكانية التى جاءت من الخارج ، عندما توغلت كثيرا ، فانها سرعان ما وجدت نفسها تنتشر فى جميع بقاع هذا الاقليم • ولعل أهم هذه الهجرات التاريخية التى جاءت من الخارج هى هجرة القبائل العربية ، تلك الهجرات التى أعطت للمناطق الشمالية والمتوسطة من السودان أبرز سماتها الحضارية : اللغة العربية والاسلام •

ولعل مما يهمنا فى هذا البحث أن نذكر أنه كان من العوامل التى ساعدت انسياح القبائل العربية فى السودان أن هجراتها قد جاءت فى زمن كانت فيه الممالك التى حكمت مناطق الشمال والوسط تسير بضعف متزايد نحو نهاية تفوذها وسطوتها(١) •

---

١ ـ Y. F. Hassan : *The Arabs and the Sudan.* From the Seventh to the Early Sixteenth Century, Edinburgh University Press 1964.

وداخل هذا الاقليم كانت الحركات السكانية تتم ، كما فى معظم البلاد ، لاسباب وفى ظروف مختلفة ، تتفاوت ابتداء من الظروف الطبيعية الى ظروف الحكم والسياسة ، على أن أهم أنواع الحركات السكانية التى تهمنا فيما يختص بهذا البحث هى تلك التى كانت تتم بسبب ظروف سياسية معينة .

ومن أهم هذه الحركات ما يمكن أن نسميه « الهجرات الهروبية » ونعنى بها هروب مجموعات من السكان من ديارها الاصلية الى أقاليم أخرى تفاديا لنفوذ السلطة السياسية القائمة وهربا من أذاها واضطهادها وضرائبها ولعل أبرز الامثلة على ذلك ما حدث ابان العهد التركى حين هاجر الكثيرون من ديارهم ومزارعهم اما هربا من انتقام متوقع كرد فعل لتمردهم على الحكم المصرى التركى أو تفاديا لضرائب باهظة خاصة بالنسبة لسكان المناطق النيلية . وما ينبغى أن نلاحظه هنا ، هو ان وجود السلطة السياسية القوية كان من العوامل التى تتسبب فى هروب السكان حين يصطدمون بها ولكن غياب السلطة والنفوذ القوى الفعال فى مناطق شاسعة من البلاد ساعد على زيادة القدرة التى كانت تتمتع بها المجموعات المختلفة من حرية الحركة .

كما ان الاتجاه الغالب للهجرات الهروبية كان دائما هو الاتجاه المعاكس لاتجاه مراكز السلطة القوية ، أى بعيد عن مجال نفوذ هذه السلطة بصورة تجعل السلطة عاجزة عن ملاحقة المجموعات الهاربة واعادتها الى دائرة النفوذ . ولذلك فان هذا النوع من الهجرات كان يرمز الى رفض هذه المجموعات للسلطة المركزية ، كما نستطيع ، رغم وجود عنصر الهروب ، ان نلمح فى هذه الهجرات ، روح مقاومة كامنة ترمز لها حركة الابتعاد هذه ، لان الابتعاد عن السلطة انما يعنى أن الذين ابتعدوا عنها قد ضنوا عليها بولائهم وتأييدهم وعبروا عن انكارهم لها فى نفس الوقت(١) .

---

١ ـ انظر بخصوص هجرات الهروب فى العهد التركى:

R. Hill: Egypt in the Sudan 1820—1881, Oxford University Press 1959.

انظر ايضا :

P. M. Holt: The Mahdist State in the Sudan 1881—1898. A Study of Origins, Development and Over-throw 2nd. ed. Clarendon Press Oxford 1970, P. 8: Population movement.

وبخصوص هروب القبائل من السلطة المركزية (قبائل البقاره ونفوذ السلطنات)

Ian Cunnison: The Baggara Arabs: Power and Lineage in a Sudanese Nomadic Tribe, Oxford, Clarendon Press 1966, P. 3.

٢ ـ الثورة المهـدية

جاءت الثورة المهدية ، وأهم ما يميز الثورة المهدية انها كانت تعكس ، باعتبارها حركة اصلاحية اسلامية سلفية ، التفاعل بين ظروف المجتمع السودانى الذى ولدت فيـه وبين التراث الاسلامى فى التفكير والثقافة والعقيدة ، وقد ظهر هذا التفاعل كأوضح ما يكون فى شخص قائد الثورة ،كما ظهر فى الطريقة التى تمت بها هـذه الثورة وفى الاسس النظرية والبناء السياسى لهذه الدولة وفى تنظيماتها المختلفـة كما ظهر فى الوسائل التى سارت عليهـا فى الوصول الى أهدافها ، مثـل وسيلة الجهـاد .

وعندما قامت الثورة المهدية فانها وجدت المجتمع السودانى على درجة عالية من التعقيد والتباين والاختلاف ، من حيث تبـاين التركيب السـكانى ، ومن حيث اختلاف الثقافات ومن حيث تعدد مراكز الولاء القبلية والاقليمية ومن حيث تعدد المحاور السياسية والدينية ومراكز النفوذ ومن حيث تعدد أنواع واتجاهات حركات الشد والجذب . فكان على الثورة المهدية، لكى تنتصر ، أن تصل الى معادلة تجعل موازين كل هذه القوى تتركز فى يد زعامتها ، واذا كان المهدى قد نجح فى ذلك اعتمادا على الناحية الدينية فى زعامته ،فان الخليفـة الذى لم يكن يملك هـذا العنصر الروحى ، قد وجد نفسه يلجأ الى وسائل رجل الدولة .

تميز تاريخ المهدية بالحيوية والاندفاع ذلك لانها كانت دعوة وثورة ، وزادت حدة الاندفاع وشدة التوتر فى مرحـلة التحول من الثورة الى الدولة ، وكان من أبرز مظاهر هذه الحيوية والاندفاع الجهاد الحـربى المستمر الذى صـار من أبرز مظاهر هذه الفترة . وسنرى أثناء البحث نوع الارتباط الذى حـدث بين ناحية الحرب والجهاد هذه وحركات التهجير فى المهـدية .

وكان من مظاهر هذا الاندفاع وتلك الحيوية فى الثورة المهدية هذه التحولات السكانية الشديدة وهذه أيضا من أبرز معالم تاريخ المهدية . فقد تعرض سكان البلاد أثناء الثورة المهدية لمختلف عوامـل الضغط والمعاناة : الحرب ، المجـاعة ، التهجير ، وكل هذه العوامل كانت تفعل فعلها فى حرمان السكان من الاستقرار وفى انقاص اعدادهم الى غير ذلك من أنواع الاضطراب المادى والنفسى .

سمة أخرى تميزت بها الثورة المهدية، واثرت كما سنرى فى سياسة التهجير التى طبقت فى عهد الخليفة ، ذلك هـواتجاهها الشمولى التكاملى فكرا وعقيدة وحكما وسياسة ، اذ ان هذه الظاهرة التىبدأت دعوة فصارت ثورة لتصبح دولـة تعدت حدود الاقاليم المختلفة كما تعـدتحدود الطوائف الدينية حين أعلن المهدى الغاءها ولانه وجهها الى كل المسلمين ، كذلك اخترقت حدود القبلية والاجناس كما اخترقت الحواجز الطبقية حين خاطبتالزعماء كما خاطبت أضعف الناس. وكانت ترى أن رسالتها موجهة لكل المسلمين بلكل العالمين . وعلى المستوى النظـرى العقائدى تدخلت فى كل شئون الحياة ،ابتداء من العبادات حتى التشريع لشئون المال والعقار الى جانب السلوك الاخلاقىالشخصى . وعلى المستوى السياسى فانها كانت ، بنفس هذا الروح التكاملى ، تطلبالولاء من الجميع بلا استثناء ، ولكنهـا لم تكتف بذلك ، اذ كانت تحاول أن تفرض هذا الولاء حين كان لا يأتيها طوعا ، وهى بهذا كانت عامل توحيد وتكامل ،وانعكس ذلك فى محاولاتها لبسط نفوذها على كل انحاء البلاد وعلى كل الفئات . ولكن نفس هـذه الخاصية كانت تعنى تعدد جبهات الصدام ونقـاط الاحتكاكبالنسبة لها ، ولم تكن سياسة التهجير فى عهد الخليفة عبد الله الا واحدا من مظاهر ذلك الاحتكاك والصدام .

٣ ـ الهجـــرة والتهجـــير فى عهـــد المهـــدى

لقد كانت الطريقة التى سار عليهـاالامام المهدى فى قيـادة الثورة المهـدية تعكس تفهمه الكامل لظروف المجتمـع السودانى التى عرف كيف يستفيد منها ، على أن الذى يهمنا هنا ما فعله فيمايختصبالهجرة فقط وهنا ينبغى ان نلاحظالآتى:

١ ـ ان الهجرة فى المجتمع السودانىمن الناحيـة التاريخية كانت رد فعـل تقليدى حين يتعرض الناس للظلموالاضطهاد وانها كانت ترمـز الى رفض النظام الذى أجبر الناس عليها .

٢ ـ قلنا ان المهدية كانت تعكس التفاعل بين ظروف المجتمـع السودانى وبين الاسلام ، على ذكر هذه النقطةتبرز أمامنا ملاحظة هامة تختص بمفهوم الهجرة فى التاريخ الاسلامى ، اذ بينـه وبين معنى الهجـرة فى تاريخ السودان تشـابه بارز . اذ انالهجرة فى الاسلام لا تحمل معنى الهروب ولكنها تعنى انسحابا «تكتيكيا»هو أيضا يؤكـد معنى الرفض ويعقبـه

تحرك معاكس يعود ضد السلطة أو المجتمع الذى أجبر الناس على الهجرة ابتداء • اى ان الهجرة بهـذا المعنى ظاهرة ايجابية فى جوهرها وليست سلبيـة •

وقد جاء فى دائرة المعارف الاسلامية مايؤيد ذلك(١) ونقطة الشبه بين معنى الهجرة فى التاريخ الاسلامى والتـاريخ السودانى كونهـا فى الحـالتين رفض لاوضاع معينة • والواقع اننا نلاحظ نوعامن الهجرة بهذا المعنى الذى يرد فى الجزء الاخير من تعريف دائرة المعارف هذا فى حياة المهدى قبل قيام الثـورة وذلك فى اتجاهه الى الانعزال خاصة فى أبا فى الفترة التى سبقت الثـورة ، وان كان يغلب على هذه الفترة أنها كانت فترة خلوة صوفية •

وقد طبق المهدى وانصاره الاوائل مفهوم الهجرة بهذا المعنى الذى هو مزيج من مفهوم الهجرة فى التـاريخ الاسلامى والتاريخ السودانى حين ابتعد بعد انتصاره على ابى السعود فى أبا مهـاجرا الى قـدير(٢) •

---

١ ـ "The Arabic word hidjra should not be translated "Flight" for the idea of fleeing is not properly expressed by the verb *"haddara"*. This verb means : "to break off relations, to abandon one's tribe, to emigrate. "At the present day in Muslim countries the name "Muhadjir" is still given to Muslims who have quitted countries in which christian powers have become established. The word does not imply that there has been precipitate flight but only difficulty in living or repugnance in the country abandoned" Encyclopedia of Islam "Hidjra".

٢ ـ هذا الى جانب الاعتبارات الاستراتيجية . والواقع ان الهجرة عند المهدى كان لها جانب عقـائدى لان بعض الاقوال اشارت الى ظهور المهدى فى جبل ماسا بالمغرب ، وقد زعم المهدى ان بجبال قدير جبل بهذا الاسم وان هجرته اليه بامر من الرسول ، وهنا ترتبط الهجرة بواحدة من علامات المهدية (انظر : ابوسليم ، الحركة الفكرية فى المهدية ، قسم التاليف والنشر بجامعة الخرطوم ـ الطبعـة الاولى ١٩٧٠ ص ٢٢) .

كذلك فان الهجرة عند المهدى كانت لها ناحية معنوية من حيث انها كانت ترمز الى الانتقال الى مجتمع المهدية الجديد ، والدليل على ذلك ارتباطها بمرحلة الدعوة السلمية الى تكوين مجتمـع اسلامى مثالى وهى المرحلة التى سبقت مرحلة اعلان المهدية كثورة مسلحة . انظـر : ابوسليم ، منشورات المهدية (تحقيق) ، الناشر ومكان النشر غير مذكورين ١٩٦٩ ، ص (هـ)

انظر ايضا : رسالة ابراهيم شحاته عن الادارة المهدية فى السودان ، ص ١١٢ وما بعدها فيما يختص بمفهوم الهجرة فى عهد المهدى .

وكان المهدى يرسل الى الناس يدعوهم الى المهدية والى الهجرة بمعنى أنه كان يهدف من الهجرة أساسا الى خدمة الدعوة الدينية لان المهاجرين حين ينضمون اليه ، فهم يكونون تلقائيا جنوده المجاهدين .

وكانت تحدث حركة هجرة تلقائيـة عقب كل انتصـار يحققه المهـدى على الحكومة ، لان هذه الانتصارات ألهبت الحمـاس كما دعمت الجـانب الـدينى لدعوته ، ومعنى ذلك هو أهمية العـامل الدينى فى الاستجابة التلقائية للهجرة من جانب رجال القبائل المختلفة وفى الواقع ليس من الدقة أن نقول رجال القبائل ، لان الكثيرين هاجروا باسرهم ، خاصـة الذين آمنوا بان المسألة هى حقيقة ظهور المهدى المنتظر نفسه .

واهمية هذه النقطة فى انها توضـح كيفيـة بداية الظاهرة من الناحيـة التى اصبحت ملازمة لجيوش المهدية ، ملازمة النساء والاطفـال للجيوش الى جـانب العوامل الاخرى التى ساعدت على استمرارها فى عهد الخليفة كما سنرى .

سياسـة التهجير فى عهـد الخليفـة عبد الله

اسباب سياسة التهجير واهدافها :

ان الدوافع التى كانت وراء سياسة التهجير لا يمكن النظر اليها بمعـزل عن الظروف والملابسات التى عاشتها الدولة المهدية فى عهد الخليفة . لذلك فان هذه السياسة تستند الى أسباب عامـة ترتبط بالدولة ، واسباب خاصة ترتبط بقبـائل أو مجموعات معينة ، أو بشخص الخليفة وفلسفته فى الحـكم الى غير ذلك من العوامل والمؤثرات .

واذا كانت هذه السياسة تعود جذورها الى عهد المهدى الذى طبقها لخدمة الدعوة والجهاد ، فان الخليفة قد طبقها لاهداف سياسية واضحة(١) ، وان كان ذلك لا يعنى أن ضرورات الجهاد قـد انتفى تأثيرها .

---

١ ـ انظر ابوسليم ، الحركة الفكرية ، ٣٦ .
انظر ايضا ابراهيم شحاته : الادارة المهدية فى السودان ، ص ١٠٢ حيث يشير الى ان سياسـة التهجير كانت ضـمن الوسائل التى اتبعها الخليفة لترميم التصدع الذى خلفه موت المهـدى فى صفـوف المهدية .

كان غـرض الخليفة الاساسى فى تهجير التعايشة تقوية مركزه فى أمدرمان بهم ، فقد أدرك أن بعض الفئات لم تكن راضيـة على توليه السلطة(١) فاراد أن يحتاط ضدها ، ولم يكن بوسعـه أن يطمئن الى الجعليين والدناقـله واهـل الجزيرة وغيرهم(٢) حتى وان لم يعارضوه بصورة ايجابية لانه كان غريبـا بينهم • لذلك عمل على ايجاد وزن خـاص فى الجيش والادارة منذ البـداية ، لاهـل الغرب • وهجرة البقارة كانت تعنى ارتفاع مكانتهم فى الدولة ، ودعم مركز الخليفة واضعاف مركز الاشراف واولاد البـلدفى نفس الوقت(٣) ولعل مما دفع الخليفة الى احضار أهله الى العاصمة ، ان امدرمان كانت ـ كعاصمة لحـكمه ـ تتسيز بنقطة ضعف أساسية : وقوعها جغرافيا فى بلاد أعدائه التقليديين وبعدها عن مناطق سنده البشرى الطبيعى فى الغرب • ولعله خشى التفوق السكانى لاولاد البـلد فى مركز الدولة ، وهو كان يعلم أنه كان لهم من النشاط الاقتصادى والتجارب السياسية قبل المهدية ما يسهل لهم الوصول الى أغراضهم ولعله خشى أن يجدوا طريقـة يصلون بها الى السلطة السياسية ، ورغبة الخليفة فى دعم مركزه لا ينبغى أن نفهمها محصورة فى الناحية العسكرية البحتـةفقط ، اذ كانت تعنى العمل على ايجـاد توازن سكانى بين فريقه وفريق اعـدائه التقليديين ، فطالما أن الظروف المختلفة قد جعلت عاصمته بعيدة عن السند البشرى الذى ينتمى اليه فلعله فكر فى نقل هذا السند نفسه الى العاصمة • وفى رأيى أن اصرار الخليفة والحاحه فى تهجير التعايشة ربما كان راجعا الى أنه كان يرى أن هجرة التعايشة ضرورية ولازمة لانجاح هجرة القبـائل الاخرى ، لان رفض التعايشة للهجرة وهم أقرب الناس للخليفة كان سببا معقولا لكى ترفضها القبـائل الاخرى •

فاذا كان قد هجَّر(٤) أهله لهـذا السبب ، فلابد من أنه كانت هناك أسباب أخـرى لتهجير غيرهم من القبائل ، لانه عمل على تهجير معظم قبـائل دارفـور وكردفان كما شمل التهجير قبائل الاقاليم الاخرى وكان اصرار الخليفة أشد مايكون

١ ـ عوض عبد الهادة ، المرجع السابق ، ص ١١٩.

٢ ـ K. C. Slatin "Fire and Sword in the Sudan", London N. York, Edward Arnold, 1896, p. 31.

٣ ـ عوض عبد الهادى ، المرجع السابق ، ص ١١٩.

٤ ـ لجات الى استعمال هذا الفعـل لان الهجرة تمت بناء على ارادة الخليفة وفى اثناء البحث سوف استعمل كلمة « المهجرون » بدلا من كلمـة « المهاجرون » لان كلمة مهاجرون قـد توحى بان الهجرة كانت طواعية من جانب القبائل .

على هجرة القبائل التى أظهرت له عـداءصريحا مثـل الفور والزغاوه والميـدوب والواقع أنه كان يفـرض الهجرة على كل من كان يخشى أن يثـير له المتـاعب فى الاقاليم ، ولعل تمرد مادبو كان من العوامل التى جعلت الخليفة يسير على هـذه السياسة ، بل ان هولت يذهب الى أبعدمن ذلك حين يقـول أنه هجَّر التعايشة أنفسهم احتياطا ضد ما قد يثيرونه له من متاعب(١) .

وكانت سياسة الخليفة القبلية تستندعلى أسس ثلاثة : عزل الزعماء التقليديين وتهجير القبائل التى يشك فى ولائها(٢) واستغلال الخلافات بين القبائل(٣) ، أى ان اثنين من هذه الاسس التى كانت تقوم عليها هذه السياسة ارتبطتا بالتهجير. ذلك لانه عندما عمد الى القضاء على الزعامات خشى ألا تقبل القبائل بمن يعينهم مكانهم فاضطر الى التهجير لفرض ارادته(٤) وهو يعلم أن الكثيرين من زعماء القبائل قبلوا المهدية اضطرارا وليس ايمانا ، وكانت دوافع التمرد متوفرة لديهم(٥) . وربما كان من الاسباب التى دعت الخليفة الى تهجيرالقبائل سحب البساط من تحت أقـدام الزعماء الذين لم يرضوا بزعامته بتهجيرأتباعهم الى عاصمته ووضعهم تحت سيطرته لانه عندما تهاجر القبيلة الى أمدرمان فانهاحتى لو هاجر معها زعماؤها فان السيطرة الحقيقية عليها ستكون فى يد الخليفة .

كذلك طبق الخليفة سياسة التهجيرمع الاشراف وأولاد البلد بكردفان اذ كان لا يثق فيهم ويخشى تأثيرهم على القبائل لذلك عمـل على تجريدهم من مناصبهم الرسمية وتهجيرهم الى الشمال(٦) ويقول هولت ان الخليفة رمى من وراء ذلك الى غرضين : الاول ، اذا اضطرت الخليفـةالظروف الى التقهقر الى الغرب . فـانه سيجد خط الرجعة خال من العناصر المعادية ، ثانيا : فى حالة حـدوث غـزو من الشمال فان أقل العناصر استعدادا لتقبل حكمه ستجـد نفسها فى أولى نقـاط الخطر(٧) . ونقطة الضعف فى هذا الرأى هو ان هذا الخطر كان سيتعرض له

---

١ – Holt, Mahdist State, 160, 161, 165.

٢ – فى ١٢١٨٨٨ ارسل الخليفة الى عثمان آدم يكلفه بتهجير كل من شك فى ولائه من قبائل الغرب ، اى ان مجرد الشك كان مبررا كافيا للتهجير . انظر : Holt : Madist State, 161.

٣ – Holt, Mahdist State, 160.

٤ – نفس المصدر السابق والصفحة .

٥ – موسى المبارك : المصدر السابق ، ص ٧٠ .

٦ – عوض ، المصدر السابق ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ .

٧ – Holt, Mahdist State, 141.

أنصاره من أهله التعايشة الذين هجَّرهم لمساندته بنفس القدر الذى كان سيتعرض له به الآخرون .

وكان عثمان آدم فى دارفور يرسل الى أمدرمان كل من خشى الخليفة من بقائه فى دارفور(١) وقد فعل ذلك مع عائلة الفور المالكة من الذكور حينما رأى حماس الفور فى الالتفاف حولهم أثناء حربه معهم(٢) .

وكذلك اتخذ الخليفة الهجرة مقياسا لولاء القبائل وزعمائها ومؤازرتهم له لذلك أخبر أهل الغرب أن الذين يقبلون الهجرة يؤمنهم ويحميهم ومن يرفضون الهجرة اعتبرهم خارجين عليه واعلنهم الحرب(٣) .

وتندرج تحت هذا الباب دعوات الخليفة لبعض الاشخاص والجماعات لزيارة أمدرمان فى المناسبات الدينية مثل المولد النبوى والاعياد وزيارة قبر المهدى، وهذا يؤكد رغبة كانت كامنة باستمرار فى نفس الخليفة وهى حرصه على احكام صلته بالجماعات المختلفة والزعامات فى الاقاليم ، يستوى فى ذلك أهله وأعداؤه وعمال دولته وغيرهم ، لكى يضمن فعالية تأثيره عليهم ، وكان يدعم دعواته هذه بمبررات مثل « المذاكرة » و « لينهلوا من تعاليم المهدية ومبادئها وستمتلىء قلوبهم بحب الجهاد فى سبيل المهدية »(٤) ولعله أراد أيضا من هذه الزيارات اظهار سطوته وقوة دولته لارهاب من يفكر فى الخروج عليه واقناعهم بقوة مركزه . كما ان القيام بهذا النوع من الزيارات كان يرمز الى تأييد ومبايعة الخليفة خاصة وانه أعلن أنه يعتبر الذين يرفضون الهجرة خارجين عليه . ومعنى ذلك أن بعض القبائل كانت تجد نفسها تلقائيا فى حالة عداء معه بمجرد رفضها الهجرة .

ولعل الخليفة كان يخشى من أن فى بقاء القبائل وزعمائها بعيدا عن مركز الدولة ما يهدد بارتدادها عن المهدية بسبب البعد عن مركز التأثير السياسى والعقائدى .

وكانت ظروف وضرورات الجهاد من المؤثرات الرئيسية فى سياسة التهجير ويقول عوض عبد الهادى « ان الخليفة اتخذ من مبدأ الجهاد وسيلة لمخاطبة قبائل

---

١ ـ موسى المبارك ، ١٢٥ .

٢ ـ Slatin, op. cit. 428.

٣ ـ عوض ، المصدر السابق ، ١١٢ .

٤ ـ نفسه ، ص ١٢١ .

كردفان لتقبل هجرة أوطانها والانتقال بما تملك من أبناء ونساء ومستلكات الى أمدرمان مدعيا أن الكفرة قد تحولوا نحو البلاد يريدون احتلالها» .. « دون أن يركز فى استنفار كل قبائل السودان للذود عن بلادها مما يجعل أن غرضه لم يكن مواجهة الاعداء بقدر ما هو سبيل الى اقناع تلك القبائل بالهجرة ، مركزا على أن الهجرة اصبحت واجبا ينبغى عليهم قبولها » « لانه بانتشار المهدية فى غرب السودان يكون أمر الجهاد هناك قد انتهى، وحتى لا يختفى الايمان من قلوبهم ولا ينشغلوا بالمظاهر المادية والدنيوية عليهم بالحضور »(١) .

كان الخليفة فعلا فى بعض الحالات قد اتخذ مبدأ الجهاد وسيلة أو مبررا (لمن رأى ان هذه حجة تناسبهم وليس للجميع) لتهجير بعض المجموعات ولكن لا نستطيع أن نجزم بأن ضرورات الجهاد لم تكن حقيقة هى التى دفعت الخليفة الى تهجير بعض المجموعات كما ان تعرض البلاد لاخطار خارجية لم يكن مجرد « ادعاء » منه بل كان حقيقة ماثلة . وليس صحيحا أن الخليفة دعا قبائل كردفان وحدها للهجرة ، فهو قد دعا قبائل دارفور كما دعا أهالى الجزيرة حين أخذ يستعد لحملة النجومى(٢) ...الخ

والواقع أنه من الصعب القول بأن الخليفة استعمل حجة الجهاد كمجرد مبرر للتهجير ، اذ ان الجهاد كان فى الواقع من عوامل نفور القبائل من الهجرة اذ عانت من الحرب الكثير وما كانت تظن الجهاد سيستمر بعد فتح الخرطوم ووفاة المهدى(٣) والخليفة كان يعلم ذلك ، ولهذا كان يبرر الدعوة الى الجهاد بمبررات العقيدة والايمان ، أى ان الدعوة الى الجهاد نفسها كانت فى حاجة الى تبرير ودعم ، ومعنى ذلك أن الجهاد بالنسبة للخليفة كان غرضا لذاته .

أما كون « الهجرة أصبحت واجبا » فان هذا صحيح من الناحية الدينية لتعرض البلاد لغزو الكفار ، وهذا يوضح وجها جديدا لسياسة التهجير باعتبار انها كانت فى نظر الخليفة واجبا دينيا لارتباطها بفريضة الجهاد ، خاصة وان المهدى أكد ذلك صراحة فى مراحل الثورة الاولى(٤) .

١ ـ عوض ، المصدر السابق ، ٢١ .
٢ ـ شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٢٤ .
٣ ـ McMichael : Tribes of Northern and Central Kordofan . Cambridge University Press, 1912, p 43.
٤ ـ ابوسليم : منشورات المهدية : منشور الدعوة ، ص ٢٣ .

واشارة الخليفة الى انتهاء الجهاد في الغرب انما تدل على أنه رأى أن تعديلا قد حدث في نظام الاسبقيات الخاص بسياسة الحرب في الدولة بسبب ظهور جبهات جديدة أكثر خطورة .

ثم يقول الاستاذ عوض ان الخليفة دعا القبائل الى الهجرة « حتى لا يختفي الايمان من قلوبهم ولا ينشغلوا بالمظاهر المادية والدنيوية » وهذا انما يعكس لنا اتساقا واضحا بين ايمان الخليفة بالمهدية وفهمه لطريقة نشرها . وهذا الفهم انما ينسجم انسجاما تاما مع طبيعة المهدية كثورة اسلامية على مستوى العقيدة وعلى مستوى الواقع . ونلاحظ دائما في احاديث وخطابات الخليفة ارتباط الدعوة الى الجهاد والهجرة بالتوجيه والنصح بالحرص على الدين والدعوة « للمذاكرة » الخ ... وذلك لان الخليفة كان يحس بأن واجبه الاساسي كخليفة للمهدي هو الحفاظ على الدعوة كما يحافظ على الدولة ومن هنا جاء حرصه على الاحتفاظ بدرجة عالية من التعبئة بين الناس . على المستوى العقائدي والمستوى الحربي ، وذلك يتضح من قوله « ألم يكن المهدي يطلب للناس الهجرة اليه بأموالهم وعيالهم ليكونوا من أهل الجنة . وانا جار على اثره ومقتف خطواته واخاف انى اذا تركتهم ينسون الخالق فيسألني عنهم »(١) .

ان قيمة هذا النص تعود الى أنه يعكس الاطر التي كانت تتحكم في تفكير الخليفة والمبادىء الاساسية لسياسته كخليفة للمهدي وكان الخليفة يرى في الهجرة مظهرا من مظاهر مواصلة العمل في خدمة الدعوة والارتباط بها مما يفسر حساسيته حيال رفض القبائل لها لانه فهم من ذلك عدم الايمان بالمهدية واصراره على تهجير الرافضين كان يعكس اعتقاده بان ذلك يعني اعادتهم الى حظيرة المهدية ، واهل الغرب خاصة هم أول من ناصر المهدية فاذا تقاعسوا عنها فمن لها ... ؟ بل لعله رأى خذلانهم لها فشل له هو ، لانهم اهله ولانه تحمل المسؤولية المهدية ، من بين جميع القادة والزعماء . فاذا فشل في حمل مجاهديها الاوائل في الاستمرار في الجهاد . فلا شك ان ذلك كان سيضر بموقفه .

ثم ان الظروف التي جدت في عهد الخليفة هي التي ارغمته على انتهاج هذه السياسة : كان المهدي يعتمد على قيام اهل الاقليم بواجب الجهاد في منطقتهم

١ ـ نعوم شقير ، المصدر السابق ، ١٢٤٥ .

ويولى عليهم اميرا منهم عشان دقنه في الشرق ، الشيخ المجذوب في الشمال وابوسن على الشكرية(١) وكانت رايات الجيش تقسم على أساس القبائل ، اما الخليفة فان صدامه مع الاشراف والودالمفقود بينه وبين اهل البحر عموما(٢) واهم من ذلك انتقال الجهاد الى الجهات الخارجية ، كل ذلك عاقه عن اتباع نفس السياسة فاضطر الى الاعتماد على جيش من غير اهالى المنطقة يقوده رجل من اهله(٣) من امثال محمود ود احمد وعثمان آدم وشيخ الدين ابنه ويعقوب اخوه ، وكان معنى ذلك أن تقوم القبائل بالجهاد في بلاد غير بلادها الامر الذى تطلب انتشار قبائل الغرب فى مناطق القلابات ومنطقة البحر الاحمر ودنقلا والجنوب ، وحتى ولو كان اولاد البلد مستعدين للاخلاص له والموت فى سبيل المهدية فان بلادهم لم تكن تستطيع مده بالجند الذين احتاج اليهم فى جيوشه التى تميزت بالكثرة العددية ، لذلك لجأ الى قبائل الغرب(٤) .

وكان الخليفة يريد أن تكون المجموعات البشرية التى يستخدمها فى الجهاد قريبة منه ليضمن سرعة الاتصال بها وسرعة تجنيد الرجال وسرعة ارسالهم الى جهات القتال(٥) وكان انشاء « مناطق الحشد » هذه جزءا من مخططات استراتيجية الخليفة العليا(٦) كما يرى هولت ان هذه السياسة كانت استمرارا لسياسة التى بدأت فى عهد المهدى والخاصة بربط القبائل بالنظام وتحويلهم من مجموعات بدو مغيرة الى جيش قبلى مستديم . ورغم ما قد نلمحه من تناقض فى وصف الجيش بانه « قبلى » الا ان الفكرة العامة واضحة(٧) .

وكان العمل على تهجير القبائل يرتبط فى معظم الاحوال بظروف الحرب والجهاد الماثلة وبالاستعداد لصدامات متوقعة ، فجهود محمود ود احمد فى

---

١ ـ محمود عبد الله ابراهيم ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

٢ ـ انظر محمود عبد الله ابراهيم ص ١٣ ، خطاب الخليفة الى محمود ود احمد يعبر فيه عن عدم ثقته فى اهل البحر ويحذره من التعامل معهم .

٣ ـ محمود عبدالله ابراهيم ، ص ٢٧ ، المصدر السابق .

٤ ـ نفسه ، ص ١٥ .

٥ ـ Rehfisch, S.N.R. 45, p. 45.

٦ ـ عصمت حسن زلفو : كردى : تحليل عسكرى لمعركة امدرمان ـ قسم التاليف والنشر جامعة الخرطوم ، ص ١٠٤ .

٧ ـ Holt : A Modern History of Sudan. From the Funj Sultanate to the Present day. London Weidenfeld and Nicolson 2nd. ed. 1963. p. 99.

التهجير ارتبطت بالاستعداد لملاقاة كتشنروقد كتب له الخليفة فى هذا فى ٢٤ ربيع اول ١٣١٤هـ يخبره بان الكفرة قد حاربوامحمد بشاره فى العرضى ثم كتب له مرة أخرى فى ٣ ربيع آخر ١٣١٤ مما جعل محمود يضاعف جهوده فى التهجير(١) .

ادت سياسة التهجير الى سلسلة من الصراعات والحروب الداخلية المتعددة بين الحكومة والقبائل ، ويمكننا القول ان هذا النزاع يمكن النظر اليه باعتباره صراعاً بين مركز الدولة واطرافها . المركز الذى يحاول فرض سلطته المعنوية والمادية على اطراف الدولة التى تحاول جهدها ان تتفادى اثر هذا النفوذ عليها أو الحد منه خاصة وانها لم تتعود الخضوع لمثل هذا النوع من النفوذ . كما يمكن ان ننظر الى هذا الصراع باعتبار انه نزاع بين الحكومة المركزية والمجموعات القبلية . اذ اتساع رقعة البلاد وبعد المسافات وتفاعل هذه العوامل الجغرافية مع الظروف السياسية ادى الى ايجاد نوع من التوتر نتج عن تبادل الشد والجذب . فبعد المسافات شجع القبائل على التمرد كمادفع الحكومة الى محاولة فرض سطوتها بكل السبل . أى ان سياسة التهجير كانت ذات ارتباط وثيق بجغرافية البلاد السياسية حيث تعددت كما قلنا مراكز الولاء ومحاور الانتماء الاقليمية وحيث بعد المسافات وصعوبة وندرة وسائل الاتصال والانتقال وانعدامها احيانا ، وضعف نفوذ مراكز الادارة الاقليمية التابعة للسلطة المركزية ، هذه المراكز التى كان يمكن ان تكون ذات فعالية فى حكم وادارة الاقاليم ولكن تنازع العمال وطبيعة العلاقة بينهم وبين الخليفة سلبتهم روح المبادرة والحسم فى ظروف كانت تتطلب اعطاءهم قدرا كبيرا من حرية التصرف . كل ذلك اضعف الادارة الاقليمية كثيرا وانطلاقا من هذه النقطة يمكن أن ننظر الى سياسة التهجير باعتبارها واحدا من أوجه المشكلة الادارية فى المهدية . ان فشل الخليفة فى ايجاد ادارة اقليمية نشطة ومتماسكة سريعة التفاعل مع الظروف المتغيرة كان من عوامل الفشل فى ربط القبائل فى الاقاليم بالدولة اذ لم تشعر القبائل بمعنى الانتماء للنظام ولم تحس الا بالجوانب العسكرية فيه وقد ساءها ان تطفو الى السطح مرة أخرى بعض أمراض التركية من حيث قسوة الحكم وسوء معاملة الناس ، وكان من عيوب الادارة انها كانت ذات طابع شخصى فردى ، العنصر الاساسى فيها صلة الخليفة بشخص العامل بمعنى أنه لم تكن

---

١ ـ محمود عبدالله ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

هناك اسس نظرية ومنهجية يستند عليهاالنظـام الادارى وتتحـكم فى طبيعـة العلاقات بين الدولة والقبائل فى الاقاليموبين السلطـة السياسيـة والادارية فى العاصمة ومراكز الادارة فى الاقـاليم .وتنتج عن ذلك الفشل فى رسم وتخطيط سياسة قبلية تأخذ فى اعتبارها الظروف والعوامل المختلفة ، كما ان عمال الخليفة لم يستطيعوا نصحـه أو مساعدته فى رسمهذه السياسة . فكان ان وجد ان الحل الوحيد لمعالجة مشاكل الولاء والمشاركةهو تهجير القبائل لتـكون بالقرب منـه بصورة مادية .

تطبيق سياسة التهجير ورد الفعـل لدى القبـائـل

اتبع الخليفـة كل الطرق الممكنـةلتنفيذ هذه السياسة . وقد تراوحت هذه الاساليب بين الدعوة السلمية ومحاولة الاقناع وبين أقصى درجات العنف .

بدأ الخليفة دعوة القبائل للهجرة بمحاولة التأثير عليها منالناحية الدينية(١) وهنا لجأ لمحاولة اقناع القبائل باستمرارالناحية الروحية فى المهدية فى شخصـه اذ أكد لها استمرار كرامات المهدية تحترايته ، ثم اتبع ذلك بدعوة القبـائل الى الهجرة وضمّن هذه الدعوة عنصرى الترغيب والتهديد وحاول حمل القبائل على الهجرة بالتذكير بالجنة والنار . ولم تكنهذه الطريقة مجدية مع بعض القبائل مثل الميدوب فى شمال دارفور لضعف الناحيةالدينيـة لديهم بمعنى أن اسـلامهم كان سطحيا ولعل بعضهم لم يكونوا مسلمين.وقد نجح عثمـان آدم فى اخراجهم من ديارهم ولكنهم لم يؤمنوا بالمهدية ايماناكاملا(٢) .

وارسل الخليفة سرا الى القبائل يدعوها للحج لقبر المهدى ، ورسم هـؤلاء الرسل صورة زاهية لما ينتظر المهاجرينمن خير وحظوة واخبروهم ان الخليفـة يعتبرهم وحدهم انصار الدين(٣) كما أمرالخليفة عماله بتوفير كل التسهيلات لنجاح الهجرة(٤) .

---

١ ـ انظر ص ١٧ ـ ١٩ .
٢ ـ موسى المبارك ، المصدر السابق ، ١٢٩ .
٣ ـ عوض ، المصدر السابق ، ١٢١ .
٤ ـ Slatin, op. cit., 531.

وقد واجهت التهجير منذ البداية مشاكل عدة . فوجيء الخليفة برفض التعايشة . اهله ، للهجرة ، ولم تجد الاساليب السلمية(١) التى كان من بينها رفع الزكاة عن الرزيقات والمعاليا الذين عارضوا هذه السياسة منذ عهد زقل(٢) . وماطلت القبائل فى تنفيذها حتى ضاق الخليفة بها فأصر باستعمال اقصى درجات العنف فكان الجيش الذى قاده عثمان آدم لارغام التعايشة على الهجرة قوامه عشرة آلاف محارب(٣) وقد اتسمت مواقف بعض القبائل بنوع غريب من العناد مثل المسيرية الذين قال عنهم محمود وداحمد « ان مسألة المسيرية هذه اخافتنا وخشينا منها لداعى انهم مع كثرة الدعايةلهم من جنابكم للهجرة والترغيب وتكرار المعاهدة منهم بالحضور اليهم لم يحصل منهم وفاء ولا نظر فى العاقبة»(٤) . ولم يكتف المسيرية برفض الهجرة بل عملوا على اعاقة هجرة القبائل الاخرى وشاركهم فى ذلك الحمر(٥) .

وفيما يختص بتهجير اولاد البلد من كردفان اتبع الخليفة اسلوبا آخر : امر الجوامعة بعزل وتهجير جميع اولاد البلدالمقيمين بينهم الى البقعة بجميع مستلكاتهم واتبع الخليفة اسلوبا مشابها حين امر القبائل بان تعوق حركة الكبابيش الموسمية وان تمتنع عن التجارة معهم(٦) .

وكان من السبل التى اتبعتها القبائل لتفادى اجبارها على الهجرة الهروب من ديارهم ، بعيدا عن جيش الخليفة ، ومن القبائل التى فعلت ذلك الرزيقات(٧) والكبابيش(٨) .

اتصفت عملية التهجير بالقسوة ، اذ أن تهجير التعايشة مثلا كان عملية اقتلاع من الجذور . فالى جانب العنف العسكرى العادى امر الخليفة بحرق قراهم حتى

---

١ ـ موسى المبارك ، ١٢٣ ـ ١٢٥ .
٢ ـ نفسه ، ٧٣ .
٣ ـ نفسه ، ١٢٤ .
٤ ـ محمود عبد الله ابراهيم ، ١٣٩ .
٥ ـ عوض ، المصدر السابق ، ١٢٤ .
٦ ـ عوض ، المصدر السابق ، ٥٠ ، ٩٤ .
٧ ـ موسى المبارك ، المصدر السابق ، ١٣٨ ، ١٤٠ .
٨ ـ عبد الوهاب احمد عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ١٧٢ .

لا يفكروا فى العودة(١) وقد كتب اليه محمود ود احمد « ان امركم الكريم الوارد فى شعبان بالالتفات لخراب دار التعايشة وان لا تترك احدا يسكن بها وتنبيه كافة القبائل بذلك قد علم والحال انها لا وجود لاحد بها ماعدا جهة طوال التى بها بنى هلبه جماعة رحمة الله الوالى وقد حررنا لمحمود جوده بالمرور عليها للتأكد من ذلك فأكد لنا صحته »(٢) وكان الاصرار على رحيل العوائل مع الرجال جزء من هذه الفكرة(٣) لذلك نجد محمود يرسل كشفا بالمهجرين من الرزيقات حوى ٢٨٩٠ من المجاهدين و٤٤٠٦ من العوائل(٤) .

كانت هجرة القبيلة احيانا مؤقتة اذ يسمح لها بالعودة الى ديارها بعد فترة ، اما القبائل التى كان الخليفة يخشاها حقيقة فان تهجيرها كان يعنى ان تترك ديارها بصورة مستديمة(٥) .

وفى امدرمان كان المهجّرون تحت السيطرة الكاملة للخليفة الذى كان يخضعهم لنوع من غسل المخ اثناء محاولته التأثير عليهم بمختلف الوسائل(٦) .

والسؤال الآن : لماذا أظهرت القبائل كل هذا الرفض لسياسة التهجير ..؟

سبق ان اشرت الى ان القبائل ظنت بعد فتح الخرطوم ان واجبها فى الجهاد قد انتهى ولذلك لم تعد تقتنع باستمرار تجنيدها للحرب ، ويمكن هنا ان نضيف ان الدعوة المهدية لم تتغلغل فى نفوسهم بصورة تجعل ارتباطهم بالدولة قويا ومستمرا(٧) . ويرى الاستاذ القدال فى موقف الشكرية والضباينه من الخليفة ، مثالا لذلك(٨) .

ثم كان هناك ارتباط القبائل بارضها وديارها ارتباطا عاطفيا وهذا شعور طبيعى « وما ذاك الا لما جبلوا عليه من حب الوطن الذى هو طبيعة الانسان »(٩) .

---

١ ـ موسى المبارك ، ١٢٥ .
٢ ـ محمود عبدالله ابراهيم ، المصدر السابق ، ١٣٧ .
٣ ـ نفسه ١٧ .
٤ ـ نفسه ، ٣٣ .
٥ ـ Holt, The Mahdist State, 160.
٦ ـ Holt, op. cit., 160.
٧ ـ Holt, op. cit., 134.
٨ ـ القدال المصدر السابق ، ٩١ .
٩ ـ من خطاب محمود ود احمد الذى سبقت الاشارة اليه والخاص بموضوع المسيرية .

وربما كان من العوامل التى لم تساعد على تقبل أهـل الغرب للتهجير كون الاقليم الذى طلب اليهم الهجرة اليه لم يكن يتميز بقوة جذب كافية بالنسبة لهم ، من حيث ظروفه الطبيعية التى لا تناسب قبائل تعتمد فى حياتها اكثر ما تعتمد على البهائم ، خاصة الابقار ، ضيق الاراضى الزراعية ، وفقر المرعى وشح المطر الخ...

وكان انتقالهم الى ذلك الاقليم يعنى ـ كما حدث فعلا ـ ان يكونوا باستمرار تحت رقابة الخليفة وسلطتـه المباشرة ، وهم لم يعتادوا الخضوع لهذا النوع من النفوذ(١) كما كانت لهم آراؤهم الخاصة حول زعامة الخليفة ذاتها علما بأنهم احسوا بعد وفاة المهدى ان المهدية اصبحت تحمل الطـابع السيـاسى الدنيـوى اكثر من العقائدى الدينى ، وولاؤها للخليفة ـ الذى كان قبولها بسياسة التهجير رمزا نه ـ كان يعنى قبولها واعترافها بزعامتـه السياسية . وكان زعماء القبـائل على الاخص امثال مادبو والغزالى ، يرون ان الخليفة بزهم وفاتهم رغم فقدانه للمؤهلات التقليدية التى كانوا يتمتعون بها ، وعارضوا سياسة التهجير لان جاههم ونفوذهم وسلطتهم ارتبطت ببقاء القبائل فى ديارها(٢) .

السـمات العـامة لسياسـة التهجـير :ـ

قبل الدخول فى آخر مراحل هذا البحث والخاصة بمناقشة نتـائج سياسة التهجير ، لابد من محاولة تكوين فـكرة عامة عن المعالم الرئيسية لسياسة التهجير والسمات التى اتسمت بها باعتبار أن ذلك يساعـد على فهم جوهـرها وابعـادها وما ارتبط بها من مؤثرات وردود فعل .

لقد سبق أن قلنا ان التغيير الذى حدث من سياسة التهجير فى عهد الخليفة هو أنها اصبحت تخدم اهدافا سياسية أساسا اذ كانت فى عهد المهدى تتجه اولا الى خدمة الدعوة الدينية ، ونلاحظ هنا أن من أهم السمات التى اتصفت بها سياسة التهجير فى عهد الخليفة ، كونها لم تستعمل فقط كأسلوب لخـدمة أهداف سياسـة معينة ، بل يبدو أنهـا تطورت بحيث اصبحت تشكل أسلوبا فى الحكم تعالج به مشاكل الولاء والانتمـاء والمشاركة ، كما تعالج مشاكل الامن والادارة والتعبئة

---

١ ـ محمود عبد الله ابراهيم ، المصدر السابق ، ١٣٩ ـ انظر ايضا موسى المبارك .

٢ ـ موسى المبارك ، المصدر السابق ، ٧١ ـ ٧٣ .

وايضا : Holt, Mahdist State, 100.

العسكرية • فتطبيق الخليفة لهذه السياسة لم يكن مسألة اجراءات محدودة زمانا ومكانا بالنسبة لمن تطبق عليهم بل اصبحت طريقة واسلوب لمعالجة المشاكل وحسمها ، لذلك طبقت هذه السياسة في مختلف الاقاليم وبالنسبة لمختلف القبائل في مختلف الظروف السياسية • طبقها الخليفة على أهله التعايشة وبقية قبائل العرب ابتداء من الكبابيش حتى الرزيقات ومن الفور الى الحمر ، من الهدندوة الى الجعليين ثم الشكرية والضباينه ، ثم اولاد البلد وسكان الجزيرة ، ومن المجموعات التى شملتها سياسة التهجير تذكر المصادر :

الفور ، الماهريه ، الميدوب ، الزغاوة، التعايشة ، المسيرية ، الحمر ، أولاد البلد (فى كردفان) ، الشكرية ، الزيادية ، الرزيقات ، المعاليا ، البرتى ، العريقات ، المحاميد ، النوايبه ، الهبانية ، الهدندوه ، البنى عامر ، الحمران ، سبدرات ، رفاعه الهوى ، بنى جرار ، الجعليين •

وعندما خشى الخليفة أن تصير سنار قاعدة للاشراف امر بحرقها وتدميرها ومنع السكن بها ولعله امر بهجر الخرطوم لنفس السبب(١) •

ولم ينحصر تطبيق هذه السياسة على القبائل وحدها ، بل طبقها على الافراد والجماعات من غير القبائل ، طبقها على زعماء القبائل وغيرهم من الافراد •

ثم ان الخليفة قد استمر فى تطبيق هذه السياسة سنوات طويلة وخسر فى تطبيقها الكثير من المال والجند والجهد •

ويرى هولت فى هذه السياسة عودة الى النظام القديم ، نظام الولاء القائم على العصبية القبلية(٢) ولكن موسى المبارك يقول ان الصراع بين الخليفة والقبائل « صراع القبيلة كنظام اجتماعى وبين مسعى الخليفة لاحلال الولاء الدينى والسياسى مكان الولاء القبلى »(٣) ويدعم هذا القول أن قبيلة التعايشة نفسها لم ترتضى سياسة التهجير بمعنى انها من الناحية القبلية البحتة لم ترتض بسلطة الخليفة ،

---

١ ـ ابوسليم ، تاريخ الخرطوم ، دار الارشاد الخرطوم ١٩٧١ ، ص ٨١ .

٢ ـ Holt, Bulletin of the School of Oriental and African Studies XXI 1958, 78
انظر ايضا : Mahdist State, 266 حيث يتحدث عن ان الخليفة كان دائما اسير انتمائه القبلى ، لكنه يضيف الى هذا الانتماء انه كان يعمل فى غير صالح الخليفة .

٣ ـ موسى المبارك ، ٧٣ .

ويظهر ذلك من موقف الغزالى الذى قتله الخليفة . والواقع اننا لا نستطيع ان ننكر ان الخليفة اصطدم بالنظام القبلى وان الصراع بينه وبين القبائل كان صراعا بين القبلية كقوة سياسية واجتماعية وبين الدولة المهدية كنظام سياسى فوق المستوى القبلى والاقليمى يرتكز الولاء له والارتباط به على أسس عقائدية وسياسية تختلف عن الاسس التى تقوم عليها القبلية . ولكن الذى حدث ان الخليفة فى محاولته الاستناد الى أهله كان فى الواقع يسلك سلوكا قبليا من حيث الفكرة والسياسة .

وارتبطت سياسة التهجير باستعمال العنف ، وفى الحقيقة ان كلمة « تهجير » التى ترد فى المراجع العربية لا تعطى وصفا صحيحا لما حدث ، اما المصادر الانجليزية فتميل الى كلمة Transfer ولكنها ايضا غير ملائمة اذ أن كلا الكلمتين قد تعنيان عملية سلمية مثل تهجير النوبة من شمال السودان الى منطقة خشم القربة ، وقد تكون هذه العملية مرتبطة بظروف طبيعية أو بظروف اقتصادية او اجتماعية معينة او سياسية ولكن برضاء المهجرين بل ربما باختيارهم كما حدث عند تقسيم شبه القارة الهندية وقيام دولة باكستان ، وقد يكون الغرض من التهجير أساسا مصلحة المهجرين . وكلا هاتين الكلمتين لا توحيان بالضرورة بأن العملية قد اكتنفها أى نوع من العنف حتى ولا مجرد فرض الترحيل ضد رغبة الافراد او المجموعات المعنية ولو كان ذلك دون اللجوء الى العنف المادى — كما ان الكلمتين ... « هجرة » و Emigration قد توحيان بأن العملية ربما تمت بصورة طوعية Voluntary بسبب ظروف طبيعية أو اقتصادية الخ ... او فى صورة هجرة اختيارية (او نفى اختيارى) Self-exile فى الحالات السياسية ، وقد يوجد فى ذلك عنصر الهروب Escape كما قد تعنى الهجرة مجرد استعداد لجولة قادمة كما رأينا فى المفهوم الاسلامى للهجرة(١) .

ولعل أقرب الاوصاف الى طبيعة تلك السياسة التى طبقها الخليفة ان نقول عنها انها « عملية ترحيل جبرية » اذ يبدو أن استعمالنا لكلمة « تهجير » لوصف هذه السياسة مسألة اصطلاحية ، لاننا لم نجد خيرا منها ولعل الكلمة الانجليزية المناسبة هنا هى كلمة Deportation أو Enforce Transfer (٢) لانها توحى بالارغام على الانتقال :

١ — انظر ص ١٠ من هذا البحث .

٢ — انظر :
Enyc. Britannica : "Migration"

أولا : لان الترحيل فى الغالب كان ضد رغبة من تم ترحيلهم .
ثانيا : لان العنف كان وسيلة رئيسية فى هذه العملية .
ثالثا : لان هذه السياسة لم تكن تهدف أساسا لمصلحة المجموعات التى فرضت عليها . بل لقد اضرت بها من نواحى معينة .

ولعلنا نلاحظ ان سياسة التهجير كانت ـ فى جوهرها ـ ذات طابع سلبى . اذ بدلا من العمل على كسب ولاء القبائل وادخالها فى دائرة المشاركة والانتماء بالطرق السياسية نجد الخليفة يأمر بتهجيرها ـ صحيح ان التهجير ربما كان علاجا مناسبا فى بعض الحالات ولكن اللجوء اليه بصورة متكررة ومضطردة فى كل الظروف يوحى بأنه كان نوعا من الحلول الهروبية أو اسلوبا لتفادى المشكلة بدلا من مواجهتها بصورة موضوعية ايجابية باعتبار الظروف وجوانب المشكلة المختلفة . ان هذا يؤكد فشل الخليفة فى ممارسة الدرجة الكافية من التأثير المعنوى على القبائل سواء من الناحية الدينية أو السياسية .

نتائج سياسة التهجير :ـ

ترتبت على هذه السياسة نتائج شملت النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية وقد انعكس تأثير هذه النتائج على الدولة ككل كما انعكس على المجموعات التى تم تهجيرها وعلى الاقاليم التى هاجرت منها والتى هاجرت اليها .

النتائج السياسية

كما سبق ذكره فان الخليفة هجّر التعايشة لدعم مركزه ، ولكن يبدو أنه لم يستطع الاعتماد عليهم فى جميع الظروف بل الواقع انهم اصبحوا من بعض النواحى عبئا عليه وقد حاولوا اكثر من مرة العودة الى ديارهم ، واتصفوا بالاستبداد والعنجهية وعدم الرضوخ للنظام ، ويقول هولت انهم عاقوا الخليفة فى محاولاته لتأسيس ملك وراثى(١) « واتضح له انه لا يستطيع الاعتماد عليهم فى جميع الظروف كما حدث عندما تمرد الاشراف »(٢) بل انهم تآمروا على حياته .. ! اذ ائتمر تسعون منهم على اغتياله بدعوى استبداده وانه ضيق عليهم العيش فأشاعوا السخط ضده وهرب بعضهم من أمدرمان(٣) .

١ ـ Holt, Modern History of Sudan, 100.
٢ ـ Holt, Mahdist State, 161.
٣ ـ عوض ، المصدر السابق ، ١٥٠ .

وكانت هـذه الهجرة بالنسبة للتعايشة ، وهم اهل الخليفـة ، كانت تعنى ارتفاع وضعهم الاجتماعى وازديادنفوذهم السياسى ، ونلاحظ هنا ان وجود عاصمة المهدية فى أمدرمان لم يتبعه ارتفاع فىاهمية وقوة اهل البحر كما حـدث من ازدياد فى قوة اهل الغرب عند هجـرة المهدى الى قـدير ، بل حـدث العكس اذ ازداد اهل البحر ضعفا بينما ازداد اهل الغرب قوة اذ اصبحت القوة فى يد احد ابناء الغرب وانتقل أبناء الغرب الى العاصمة الجديدة باعتبارهم السند الاساسى للحكم . وكانت من اهم اهداف سياسة التهجير كما رأينـا اضعاف أهـل البحر وكان من أهم نتائج معادلة القوة الجديدةازدياد قـوة يعقـوب وحـدوث بعض التصفيات بين اولاد البلد مثل قتل ابراهيم عدلان أمين بيت المال(١) .

وكان من أوجه الازدياد فى نفـوذانبقاره ان تولوا معظم المناصب القيادية الهامة فى البلاد(٢) .

ورغم ان هجرة البقاره لم تكن تعنىدعما كاملا لموقف الخليفـة من جميـع النواحى ، الاانها اعطته نوعا من الاطمئنانجعله يحاول ارضاء اهـل البحر ببعض المناصب بعد هزيمة النجومى(٣) . واهميةهذه النقطة انها توضح الى اى مدى كان الخليفة ــ رغم ظاهر قوته ــ اسـيرا لموازين القوى داخل الدولة .

وقال البعض ان قوة التعايشة وصلت حـداً جعلهم يسيطرون على الخليفـة وانهم كونوا « مجلسا للابهات » من كبارهم والمسنين منهم « كان هو الحـاكم الحقيقى لهذه البلاد » واستطاع ان يملىارادته على الخليفة فى أغلب الاحيان(٤) ، ليس غريباً أن يقوى نفوذ التعايشة بعد هجرتهم الى أمدرمان ولـكن يستبعـد وصول هذا النفوذ مرحلة التحـكم فىالخليفة وان يكون مجلسهم هو « الحاكم الحقيقى » بسبب ما نعرفه عن شخصية الخليفـة وتفرده بالسلطـة وغيرته على مركزه .

على ان محاباة الخليفة لاهله وما اغدقه عليهم من امتيازات مضافا الى سوء سلوك هؤلاء وما عاناه الناس منهم جعل بقيـة النـاس يحقدون عليهم وعـلى

١ ــ ابوسليم ، الحركة الفكرية ، ٣٦ .
٢ ــ Slatin, op. cit., p. 532.
٣ ــ الحركة الفكرية : ٣٦ .
٤ ــ زلفو ، المصدر السابق ، ١٠٥ .

الخليفة(١)• ولقد أضر ذلك كثيرا بموقف الخليفة الذى وجد نفسه ، ازاء سلوك البقاره ، مضطرا الى اصدار « منشور منع الظلم » آمرا فيه أهله بكف أيديهم عن الناس(٢) • وكان سخط الناس على سوء سلوك البقاره من عوامل الثورة والتمرد كما حدث فى ولاية بربر(٣) حين فقد الناس الاحساس بالانتماء للدولة وخمدت فى نفوسهم روح الجهاد(٤) • وقد اضاعت هذه السياسة على الخليفة كل التأييد الذى كان يمكن ان يجده من أهل البحر(٥) وازدادت الشقة بينه وبينهم اتساعا مما كان له اسوأ الاثر فى اضعاف قواعد الدولة(٦) ــ لقد أثرت هذه السياسة على موقف الخليفة كقائد ينبغى ان تستند زعامته على قاعدة عريضة تتخطى حدود التعصب القبلى خاصة وانه كان خليفة المهدى الذى وحد بين القبائل على اسس ليس من بينها الانتماءات القبلية • لقد اعطت تلك السياسة انطباعا بأن الخليفة كان مجرد زعيم قبلى تهمه مصالح اهله الذين يعتمد عليهم فى بسط نفوذه • وكان الخطر الحقيقى ان حقد الناس على البقاره وعلى هذه السياسة تحول الى عداء للنظام وللمهدية ذاتها ، فتعجلوا بنهايتها علما بان اصرار الخليفة على التهجير سبب له مزيدا من الخسارة من ناحية علاقته مع القبائل التى فرض عليها الهجرة ، سواء أكانت قبائل الغرب أو غيرها ، والواقع ان ما تشير اليه رواية مصطفى الامين فى تقارير المخابرات من قبول الناس لحكم الخليفة ، فان هذا بالاضافة الى ما فيه من عنصر قبول الامر الواقع فانه تنتج أيضا من أن الخليفة قد عكس فى سياسته فى تلك المنطقة (دنقلا) بان اوقف البقاره عند حدهم كما أمن سكان المنطقة وعمل على استقرارهم(٧) •

والواقع ان سياسة التهجير ادت الى توسيع وتعميق جبهة المعارضة ضد الخليفة، فقد وجدت بعض القبائل نفسها مدفوعة دفعا الى التمرد على الخليفة بسبب رفضها لسياسة التهجير • فقبيلة رفاعة الهوى مثلا ، التى ظلت سندا قويا للمهدية منذ

١ ــ Holt, Modern History of Sudan, 100.

٢ ــ ابوسليم ، منشورات المهدية ، ٢٨٠ .

٣ ــ عكاشه ، المصدر السابق ، ٥١ .

٤ ــ نفس المرجع ، ٢١ .

٥ ــ عوض ، المصدر السابق ، ١٧١ .

٦ ــ Holt, Modern History of Sudan, 100.

٧ ــ محمود عبدالله ابراهيم ، المرجع السابق ، ٢٦ ــ مصطفى الامين تاجر سودانى قدم للمخابرات المصرية معلومات فحواها قبول الناس خاصة فى منطقة دنقلا لحكم الخليفة بعد توشكى .

البداية ، ما لبثت ان تمردت على الخليفةعندما امرها بالهجرة والامثلة متعددة(١)•

ويمكن تلخيص ما حدث فيمايلى:ـ

١ ـ القبائل التى ارغمت على الهجرة أووجدت نفسها مضطرة للهروب لتفادى الهجرة زاد حقدها على الخليفة ودولته •

٢ ـ طريقة تطبيق سياسة التهجير اورثت بعض القبائل مشاعر من الحقد صعب تلاشيها(٢) •

٣ ـ المجموعات التى تم تهجيرها مرت فىطريقها بديار قبائل اخرى وعانت هذه الاخيرة من ذلك كثيرا •

٤ ـ المجموعات التى تم تهجيرها ضيقتكثيرا علىالسكان الذين انتقلت الىبلادهم ودفعتهم الى مزيد من كراهية الدولة •

٥ ـ الذين هربوا من التهجير اصطدموابمجموعات اخرى فى المناطق التى هربوا اليها •

٦ ـ بسبب اصراره على فرض سياسةالتهجير وجد الخليفة نفسه يخوض سلسلة من الحروبات الاهلية ضد من امتنعوا عن الهجرة •

٧ ـ استعمال القوة فى التهجير ساعدعلى تدعيم الطابع العسكرى البغيض للدولة مما صبغ الحكم بلون استبدادى قاتم •

ومن المسائل الهامة ان التهجير بلورالصراع بين اهل البحر واهل الغرب وجسده فى مركز الدولة نفسه لذلك اصبحت صورة الشقاق اكثر وضوحا ، اذ اصبحت الدولة تفتقر الى الوحدة والتكامل فى مركزها نفسه • وكان ذلك يعكس خللا اساسيا فى النظام كله . بسبب ما وجد من تنافر بين القوى الرئيسية على مسرح السياسة فيه وكان معنى ذلك ان يستمر الخليفة فى اهدار طاقاته فى محاولاته لحفظ التوازن فىمركز الدولة ، علما بان القبائل كانت

---

١ ـ احمد عثمان ابراهيم ، المصدر السابق ، ١٨٧.

٢ ـ انظر : R. C. Stevenson : The Nuba of Kordofan : An Ethnographic Survey M. Sc. thesis. Khartoum.

تفتقر الى النضج السياسى وحملت معهـا الى مركز الدولة تقاليد وقيم قبلية كانت تناقض ظروف الحياة السياسية فى العـاصمة . وهكذا يبدو لنا ان الخليفة بهذه السياسة اوجد عاملا جديدا من عوامـل التناقض فى عاصمته نفسها . وكان يمكن ان تؤدى الهجرة الى ربط اجزاء البـلاد بعضها وايجـاد نوع من التـلاحم بين السكان كما حدث فى الولايات المتحدة الامريكية حـين ادت الهجرة من الشرق الى الغرب الى تماسك البلاد وقوتها فى مواجهة الاخطـار الخارجية(١) اذ كانت قضية الوحدة والتكامل قضية اساسية فى المهدية فالوحـدة التى اوجدها المهـدى اتضح بعد وفاته انها كانت مرتبطـة الى حـد كبير بشخصيته القيادية والجـانب الدينى فيها بوجه خاص ، ولكن الخليفة واجه هذه المشكلة من زاوية واحـدة : زاوية علاقته برعاياه سواء اهله التعايشة ام الاشراف واولاد البـلد ام القبـائل الاخرى ام غيرهم . اى انه رأى المشكلة من حيث انه هو الحاكم الذى ينبغى ان يتجه اليه الجميع بالولاء . ولم ينظر اليها نظرة اكثر شمولا بان يضيف اليها النظر من زاوية البناء القومى العـام . اى من ناحية العلاقات بين هذه الفئات نفسهـا ولذلك فانه اثناء تطبيقه لتلك السياسـة لجأ الى اساليب اضرت بالعـلاقات بين القبائل ، مثل ما فعله فى حالة الكبابيش وحـالة اولاد البـلد حـين ألب عليهم الآخرين(٢) . ثم ان الخلافات زادت بين القبائل بل داخل القبيلة الواحدة بسبب اختلاف الاستجابة لسياسة التهجير حين قبـل البعض ورفض البعض الآخر(٣) . وقد عمد الخليفة الى عزل القبـائل عن بعضها البعض حين منع حركة القبائل بين الاقسام الادارية التى وافقت الاقسـام القبلية ولم يسمح بانتقال القبـائل بين هذه الاقسام الا باذن منه شخصيا وكان يهدف الى إحكام سيطرته الادارية(٤) .

وفى شرق السودان مثلا اضر الاحتكاك بين الهدندوه والبقاره بمـوقف المهدية فى تلك المنطقة(٥) .

---

١ - Everett S. Lee : "Internal migration and population distribution in the United States" Population : The Vital Revolution" by R. Freedman (ed) Aldine publishing House Chicago 1965. p. 124 : The great movements.

٢ - انظـر ص ٢٩ .

٣ - الخلاف بين زعيمى التعايشة الغزالى وسلفه العبيد : موسى المبارك ، المصـدر السابق ، ٢٤٤ . انظر ايضا ص ٢٨٨ بسبب الاختلافات التى حدثت عندما دعا محمود ود احمد القبائل للهجرة .

٤ - عوض ، المصدر السابق ، ٥٦ .

٥ - صلاح التجانى ، المصدر السابق ، ١٦ .

وبالاضافة الى ان المشاعر العدائية كانت متبادلة بين اولاد البلد واهل الغرب حتى منذ قبل التهجير ، فان التهجير عقد الامور اكثر لان البقاره حضروا كارستقراطية حاكمة رغم احتقار اولاد البلد لهم .

ومما لم يساعد على التفاهم ان البقاره لم يشاركوا فى النشاط الاقتصادى والحياة الاجتماعية فى المناطق التى هاجروا اليها ،خاصة وان ذلك لم يكن واردا فى سياسة الخليفة ، وكانوا يرون بقاءهم فى المناطق التى هاجروا اليها مسألة عابرة ولم يتوقعوا ان تكون له نتائج مستمرة ،وقد عادوا الى ديارهم بعد نهاية المهدية .

لذلك فان الخليفة لم يكسب كثيرا لان الحساسيات والاحتكاكات بين المجموعات التى كانت تكون دولته استمرت باقية بل وازدادت ، الامر الذى يعنى انه قد أقام بناء بلا أساس ، وفى هذا نلمح تناقضا مع الاتجاه القومى العام الذى كانت ترمز اليه المهدية .

على ان هذه السياسة كان لها بعض النتائج الايجابية وان لم تتميز بكل الوضوح الذى تميزت به النواحى السلبية، خاصة وان هذه الجوانب جاءت كنتائج عرضية ولم تكن مقصودة لذاتها .

فحركة التهجير كانت دفعة قوية اخرجت القبائل من محاورها التقليدية والقت بها فى خضم التيار الوطنى العام ، اذ قضت على استقلال مراكز الاستقطاب القبلية والاقليمية واصبحت القبائل مجردتروس واجزاء فى عجلة السياسة التى صار محور ارتكازها عاصمة الخليفة ،ويتضح هذا المعنى حين نقارن ذلك مع ماكان يحدث فى التركية حين اكتفت الدولة فى علاقاتها مع القبائل بمحاولة حفظ الامن والنظام وجباية الضرائب . فالرابطة بين نظام الخليفة والقبائل صارت رابطة عضوية لان هذه الرابطة صارت جزءا من ميزان القوى الذى كان الخليفة يحكم فيه .

واتاحت هذه الحركة للقبائل المختلفة ، التى فصلت بينها المسافات الهائلة ، أن تحتك ببعضها البعض بسبب دخولها فى تجارب مشتركة ، ويعود ذلك الى

عهد المهدى ، ولكن حركة التهجير زادت هذا الاحتكاك فى المدى والعمق ولاشك ان هذه الاتصالات كانت عوامل تساعد على التفاهم وتمهد لبروز اتجاه قومى فى الشعور نحو الآخرين(١) وهى تذكرنا بالعلاقات التى اخترقت الحدود القبلية والتى اوجدتها ، قبل المهدية ، مجموعات كالجلابة ورجال الدين .

وتجىء هنا ملاحظة لعلها هامة . فغرب السودان مثلا من بعض نواحيه امتداد لغرب افريقيا والسودان الغربى والسودان الاوسط ، والشرق كذلك يمكن النظر اليه كامتداد لمناطق اثيوبيا والصومال(٢) .. الخ. فانتقال القبائل من غرب السودان الى اواسط البلاد والى الشرق وزيارة بعض قبائل الشرق لامدرمان كان يعنى خطوة جديدة نحو ربط هذه الاطراف الهامشية بالنسبة للاقليم السودانى نواة هذا الاقليم المتمثلة جغرافيا فى منطقة الوسط والعاصمة وسياسيا فى كيان الدولة المهدية ، الامر الذى يعنى دعم وحدة البلاد وتماسكها .

ومن مظاهر ذلك ما اشار اليه اوروالدر من ان التفاهم بين قبائل الغرب وبقية السكان قد ازداد بسبب التغيير الذى طرأ على اللهجة التى كان يتحدث بها البقارة بسبب الهجرة ، مما ادى الى تيسير التفاهم المتبادل . والواقع انه ، وان كنا لا نملك ان نقدر حقيقة ومدى الظاهرة التى أشار اليها أوروالدر(٣) ، الا أنها اشارة لها مغزاها .

نتائج سياسة التهجير بالنسبة للقبائل والنظام القبلى

كانت هذه السياسة ضربة عنيفة وجهها الخليفة الى القبائل اختل بسببها النظام القبلى كله .

---

١ ـ صلاح التجانى ، المصدر السابق ، زيارة قبائل البجه لامدرمان .

٢ ـ A. W. Sommer: "The Sudan, A geographical Investigation of the Historical and Social roots of political dissension" Ph.D. Thesis Boston 1969, p. 176.

A Mazrui: "The Multiple Marginality of the Sudan" in "Sudan in Africa" Proceedings of Ist. int. Confrence S. r. U. U. of K., by Y. F. Hasan (ed)

٣ ـ Father Joseph Ohrwalder: "Ten Years Captivity in the Madi's Camp" 1882—1892, 2nd ed. London, Sopson Low, Mortson & Co. 1892, p. 392.

وكان من مظاهر هذا الخلل ان القبيلةفقدت ارتباطها بأرضها بعد أن أبعدت عنها ماديا ، وبذلك فقدت القبائل القاعدة التى كانت تستند اليها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا •

وكان من مظاهر هذا الخلل أيضا اضعاف نفوذ الزعماء التقليديين اذ كانت سياسة التهجير تعنى خروج الامر من أيديهم لان القبائل صارت تخضع للخليفة ونظام حكمه(١) •

لكن هذا الضعف الذى أصاب النظام القبلى لم يكن يعنى تدعيم الوحدة الوطنية القومية ، اذ الواقع ان حركة التهجير لم تقض على الروح القبلية ، والقبائل ظلت حتى بعد ان فرضت عليهاالهجرة تتعامل مع الخليفة كقبائل• صحيح ان المهدى وحد مجموعات مختلفة منالسودانيين من مختلف القبائل تحت رايته، ولكن هذه الوحدة تصدعت فى عهد الخليفة • فالقبائل كانت تنظر للمهدى كقائد روحى ، اما الخليفة فكان يتصرف كحاكم ورجل دولة ، وكانت القبائل تنظر اليه فى هذا الضوء • والقبائل من غير قبائل الغرب نظرت اليه باعتباره يحكم باسم وبسند اهله من قبائل الغرب ، فىحين كانت قبائل الغرب هذه تراه اقل جدارة من أن يستحق تولى منصب الحاكم • وكون البلاد كانت موحدة سياسيا تحت حاكم واحد لا يعنى ان القبلية قدانتهت ليحل محلها شعور قومى واحد ، فتحت البناء القومى للدولة المهدية ظل النظام القبلى مستمرا بوحداته القبلية وزعاماته — التى تم تحييدها مؤقتا — وقيمه وتقاليده •• الخ •• الخ•

ولقد ادت سياسة التهجير الى الاخلال بالتوافق الطبيعى الذى كان موجودا بين نمط الحياة الذى اعتادت عليه القبيلةوبين ظروف البيئة التى كانت تعيش فيها ، ان هذا التوافق ، مسألة حيوية للغاية خاصة فى المناطق البدوية حيث يعنى استقلال الظروف الطبيعية والمناخية بانسب صورهتجعلها فى مصلحة الانسان ، وهو المعادلة التى تتحكم فى النشاط الاقتصادى والاجتماعى للانسان ويشمل توزيع العمل بين الافراد والجماعات ، وتوزيعه حسبفصول السنة الى جانب تنظيم حركة القبيلة الموسمية اثناء العام وهذه الحركة عامل أساسى يتحكم فى الناحية المعيشية بالنسبة

---

١ — A/ Gaffar M. Ahmed "The Political System of Rufa'a el Hoy, M.Sc. Thesis, Khartoum. p. 101.

للانسان والحيوان • وتعكس هذا التوافق وترتبط بها كل النظم الاجتماعية والتقاليد وانماط التصرف فى مجتمع القبيلة(١) وكان ان أخرجت سياسة التهجير بعض المجموعات من هذا النمط كلية ، ولكنها ادت ايضا الى اضطرابه بالنسبة للمجموعات الاخرى فالحرب ضدهذه القبائل كانت تتعارض مع الحركة الموسمية ، كما ان بعضها اضطر الى ان يغاد ر الديار الى مناطق اعتاد ان يذهب اليها فى غير المواسم التى وجد نفسه مضطرا الى ان يذهب اليها فيها ، وقد أثر ذلك على الانسان والحيوان(٢) •

انه يصعب علينا جدا تقدير الضرر الذى عاد على القبيلة من هذه الناحية ، فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية ولكن نستطيع ان نقول انه كانت له آثار محسوسة •

وانعكس الضعف الذى اصاب القبائل فى النقص الشديد الذى اصاب اعدادها بسبب الهجرة والحرب والتشتت فى الاقاليم فقد كادت ديار التعايشة تخلو من الناس(٣) • وانتشرت بطون الشكرية بين القضارف ورفاعه وكسلا ، بل يقال ان اعدادهم نقصت من اربعين الفا الى اربعة آلاف ، وان هذه الارقام قد تبدو مبالغا فيها ولكنها على الاقل تعطى فكرة عما حدث(٤) أما الكبابيش الذين يقال ان عددهم قبل المهدية كان ستين الفا فقدصاروا اثناءها عشرين الفا ويبدو انهم لم يعوضوا ذلك النقص الا بعد اكثر من نصف قرن حيث بلغ عددهم فى سنة ١٩٥٨ ثمانية وستين ألفا(٥) •

ويبدو ان ما عانته القبائل كان اكثر مما تحتمل ، فهاهم المسيرية الذين اظهروا اشد انواع العناد والمقاومة ، يعودون فيرضخون للعنف ويطلبون العفو ويرجون

---

١ – I. Cunnison, "Baggara Arabs": Power and Lineage in A Sudanese Nomadic Tribe" Oxford, London Press 1966, ch II Land & movement.

T. Asad: "The Kababish Arabs' Power, Authority and Consent in A Nomadic Tribe", London, C. Hurst & Co. 1970, ch II Ecological Framework, especially Sec. IV: The Pattern of Finnual Migration p. 19.

٢ – موسى المبارك ، ١٣٨ (هروب الرزيقات الى بحرالعرب فى موسم الخريف واثر ذلك عليهم) .

٣ – Theobold, Ali Dinar, 24.

٤ – القدال ، ٢٨٣ وايضا Reid, Notes on the Tribes and Prominant Families of the Blue Nile Province, P. 51.

٥ – عوض ، ٩٤ .

السماح لهم بالاستقرار فى منطقة السنوط(١) هذا بالاضافة الى ما عاناه الافراد من قلق واضطراب نفسى لسبب الفصل بينهم وبين اسرهم واهلهم والذى سبقت الاشارة اليه .

النتائج الاقتصادية

أول ما نلاحظه فى هذا المجال انسياسة التهجير ادت الى حرمان المناطق التى تم منها التهجير من العناصر البشرية النشطة ، فمتطلبات الجهاد كانت تعنى أخذ الاقوياء القادرين من الرجال(٢) . وبما أن الهجرة قد شملت النساء أيضا ، وكما نعلم ان للمرأة دورا هاما فى الحياة الاقتصادية لقبائل الغرب خاصة ، فان ذلك لابد قد فاقم الاضرار الاقتصادية للتهجيرفى تلك المناطق .

وقد أضيرت بعض المجموعات من نواحى أخرى ، فقد اتبع الخليفة مع أولاد البلد فى الغرب سياسة الايقاع بينهم وبين القبائل فى سبيل عزلهم وهذا لاشك أثر على علاقاتهم الاقتصادية ، بالاضافة الى ان تهجيرهم كان يعنى غياب فئة نشطة وذات خبرة تجارية طويلة فى المجال الاقتصادى ولا شك ان هذا اضر بهم وبالاقاليم وبالدولة ككل ، وكان واحدامن مظاهر السياسة الاقتصادية غيرالموفقة.

ونتيجة لهذه السياسة فقدت بعض القبائل ميزات اقتصادية معينة كانت تتمتع بها . فالكبابيش مثلا استفادوا من وضعهم الجغرافى حين عملوا على نقل التجارة بين مصر والسودان ولكن عند اصطدامهم مع الخليفة وعندما عمل على تهجيرهم اضطروا الى الهروب ، بعضهم اتجه نحو النيل وآخرون ساروا نحو اطراف الصحراء البعيدة وكان ذلك يعنى حرمانهم من وضعهم الاقتصادى الفريد ولكن تأثير ذلك امتد الى الدولة ككل ، اذ بعد قيام المهدية كانت هذه القبيلة هى الوسيط الرئيسى الذى يجلب البضائع التى كانت البلاد تحتاج اليها كالمنسوجات القطنية والعطور والكحل والشاى والصابون .. الخ(٣) .

---

١ ـ نفسه ١ ١٣٢ .

٢ ـ فى احدى المرات ارسل عثمان آدم مجموعة من المهجرين من الحمر والمسيرية كانت غالبيتها من النساء تفسير ذلك ان الرجال كانوا اما هاربين من الهجرة او فى حالة تمرد مسلح ضد المهدية (عوض ، ١٢٧) .

٣ ـ عوض ، المصدر السابق ، ٩٤ .

أما قبيلة بنى جرار فقد ضاعت معظم ثروتها من الماشية أثناء وجودها فى أمدرمان(١) كما عانى الشكرية من الفقر والفاقة والتشتت حين كانت ارضهم معسكراً للجيوش ، ولقد اضطر الخليفةاخيرا ان يغير سياسته نحوهم هم والضباينه بسبب ظروف الحرب فى الجهةالشرقية(٢) ، كذلك عانت قبائل البجه فيما يتصل بالمرعى ويقال ان قبيلة الجمع الذين يعيشون فى جنوب الجزيرة أبا اليوم قد اضطروا الى الاستقرار واحتراف الزراعة ، لانهم فقدوا مواشيهم أثناء التجريدات التى شنها عليهم الانصار(٣)•

وما سبق أن اشرنا اليه من الاخلالبالتوافق بين نمط حياة القبائل وظروف البيئة نستطيع ان نقول انه كانت له آثاراقتصادية ضارة وان كان يصعب تقديرها اليوم •

وقد عانت دارفور بصورة خاصة فقد تضافرت ظروف التهجير مع الحرب وفرار الكثيرين من ديارهم لكى تؤدى الىانقاص سكان الاقليم بصورة واضحة وقد تعطل النشاط الزراعى فانعدمتالحبوب وانتشر القحط ، وفقدت البلاد القوة الانتاجية لمن تم تهجيرهم(٤) وحدث مايشبه ذلك عند محاربة الجعليين ثم تهجيرهم وهروب بعضهم حين اصبحت الاراضى الزراعية على جانبى النيل « يبابا انعدمت فيه حتى الاعشاب التى تعتمد عليها الحيوانات »(٥) •

ولم يكتف الخليفة بذلك بل فرضعلى القبائل التى كانت تنهرب من الهجرة عقوبات اقتصادية اذ أعلن أموالهم ومستلكاتهم وأراضيهم غنيمة ، حدث ذلك مع الجعليين وفى منطقة القاش وفى منطقةالشايقية والدناقله ، وعند فرار الاهالى كانت مزارعهم تعطى للانصار(٦) وكان من بين هذه العقوبات الاقتصادية حرق المزارع فى دارفور(٧) •

---

١ ـ T. Asad. 160, Reid, S.N.R. III, 1930, P. 182.

٢ ـ القدال ، المصدر السابق ، ٢٤٤ ـ انظر ايضا ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٥٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٨٢ .

٣ ـ وجدت ذلك عند ابوقرون فى كتابه عن حياة وعادات قبائل السودان الكبرى ص ٨٨ ولكنه لا يشير الى مصدره .

٤ ـ شبيكه ، السودان عبر القرون ، ص ٣٦٣ ـ دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ .

٥ ـ عكاشه ، ولاية بربر فى المهدية ، رسالة ماجستير ، الخرطوم ١٩٧٠ ، ص ٢٤٥ .

٦ ـ أبوسليم ، الارض فى المهدية : ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٦ .

٧ ـ موسى المبارك ، ١٢٤ .

وعندما جاء المهاجرون كان على الخليفة ان يوفر لهم ظروف العيش الضرورية وكان أول ما فعله أن أمر بجمع الحبوب التى كانت موجودة لدى التجار وباعها للبقاره بابخس الاسعار وعندماأخذت الكميات الموجودة بامدرمان تقل أرسل الى الجزيرة لاحضارها من هناك ويصف سلاطين ما حدث بأنه كان مصادرة(١) .

فقبائل الغرب اجبرت على ترك ديارها لتأتى لتعيش عالة على المناطق التى كان عليها أن تتحمل عبء امداد وتموين الجيوش مثل الجزيرة كما منحوا مساحات من أجود الاراضى فى المناطق النيلية دون تعويض لاصحاب الاراضى الاصليين(٢) وكثر عدد البقاره بالجزيرة حتى أصبحت لهم عمالة خاصة سميت عمالة المهاجرين(٣) وكان الخليفة قد منحهم أراضى خصبةفى الجزيرة ليزرعوها فتركوها واستولوا على أراضى السكان المزروعة وقد كتب الخليفة الى عامليه ابراهيم النور وعبد المجيد عنيف والى البقاره أنفسهموأهالى الجزيرة يمنع ذلك ولعله خشى أن يفقد بيت المال الدخل الذى يأتيه من الجزيرة اذا استولى البقاره على المحصول(٤) وقد اساء البقاره معاملة الناس فى الجزيرة كثيراً حتى انهم كانوا يستولون على اثاثات المنازل وقد اضطرب حبل الامن كثيراً(٥) وأتى ذلك من أن البقاره لم يكونوا قد تعلموا الاستقرار بالمعنى الموجود فى المناطق الزارعية ولعل ما سببوه من اضطراب فى منطقة الجزيرة بسبب استيلائهم على أراضى السكان المستقرين ذو صلة بما تعودوه وتعارفوا عليه من ظروف المجتمع القبلى الرعوى فى بلادهم حيث الملكية الجماعية للاراضى وحريةالتنقل فيما يسمى بديار القبيلة(٦) .

ربما كان يمكن ان يساهم البقاره فى التطور الاقتصادى وزيادة الانتاج فى المناطق التى هجّروا اليها ولكن الظروف كانت تمنع ذلك :

١ ــ فهم أولا كانوا اجتماعيا وحضاريا اكثر تخلفا من سكان المناطق التى هاجروا اليها ولم يكن بوسعهم ان يعلموا هؤلاء اى مفاهيم واساليب جديدة اكثر

١ ــ Slatin, op. cit., 450.
٢ ــ Ohrwalder, op. cit., 393.
٣ ــ احمد عثمان ابراهيم ، ١٧٨ .
٤ ــ نفسه ، ١٨٩ .
٥ ــ المصدر السابق ، ١٨٠ .
٦ ــ ابوسليم ، الارض فى المهدية ، شعبة ابحاثالسودان بجامعة الخرطوم ١٩٧٠ ، ص ١٠ .

مما كان موجودا من حيث اساليب الانتاج والزراعة ، كما ان ما عرفوه من اساليب زراعيـة ترتبط بالمطر كان يختلف عما كانت تعرفه المناطق الزراعيـة التى انتقلوا اليها حيث كانت الزراعة اكثر تنظيما واستقرارا .

٢ ــ ضيق الاراضى الزراعية خاصة وان مساحاتها وانتاجيتها كانتا مرتبطتين بمقدرة واحتياجات الذين يعتمدون عليهـا الى حد كبير .

٣ ــ الود المفقود بينهم وبين اولاد البلد كان عائقا للانسجام والتعاون .

٤ ــ كما سبق ذكره لم يكن واردا ، فى الاسباب التى دعت الخليفـة الى تهجير البقاره ، اشراكهم فى الحياة الاقتصادية فى المناطق التى هجّروا اليها .

٥ ــ ثم انهم جاءوا ، كما قلنا ، كطبقـة حاكمة ولم يفـكروا فى ان يجعـلوا من انفسهم طبقة عاملة منتجة .

٦ ــ بالاضافة الى أن معظم القوة العاملة بينهم قد استهلكتها الحروب .

وقد تعلم الخليفة من درس المجاعـة ان يستثنى بعض القبائل من الهجرة مثلما فعل مع الشكرية والضباينه(١) كما فعـل فى منطقة دنقلا حين منع عماله من استنفار كل الناس للجهـاد بأن يتركـوا بعضهم للزراعة كما امرهم بعـدم التشـديد فى زكوات العيوش وكذلك أخذ يشجع الناس فى المناطق القريبـة من أمدرمان على الزراعة(٢) .

وتعتبر سياسة التهجير من اهم اسباب المجاعة الشهيرة(٣) بسبب ما سببته من اضطراب سكانى من حيث عدم الاستقرار وسوء التوزيع السكانى وتعطيل مجموعات كبيرة عن العمل ، وازداد الامر سوءا عندما أمر الخليفة بتهجير سكان الجزيرة نفسها فى سنة ١٨٨٦ فاصبحت المنطقة مهجورة الى حد كبير ولـكنه اعادهم سنة ١٨٨٨ عندما وجد مشقة فى اطعامهم(٤) .

---

١ ــ See P. 52.

٢ ــ Egypt Intellegence Report 35 March 1895 General Report on the Sudan P. C. (agriculture).

٣ ــ ابوسليم ، الحركة الفكرية ، ٣٥ .

٤ ــ E. Mackinnon : Blue Nile Province (Agriculture in Ch XXVII of : J. B. Titgukk : Agriculture in the Sudan. P. 770, Oxford University Press, 1954. P. 765.

وفى الشرق ساءت الاحوال حتى جاءت جيوش عثمان دقنه وتشتت وزاد سوء الحال عند تهجير مجموعات من الدناقله والجعليين والبقاره والشكريةوقبائل من منطقة كسلا فى بداية عام ١٨٨٧ الىمنطقة سواكن للجهـاد(١) وهناك مسألة هامة نذكرها للمقارنة :

ان سلاطين لا يذكر شيئا عن حالةكردفان اثناء المجاعة ولـكنه يقـول ان الاحوال فى دارفور كانت احسن منها فىمنطقة القضارف ــ القلابات لان المناطق الغربية كديار القمر والتاما والمساليت رغمانها لم تكن فى حاجة الى الحبوب الا انها منعت تصديرها الى القاشر لانها لم تكنتخضع لسيطرة الدولة الكاملة ، ويضيف ان المناطق التى كانت خارج حكم الخليفةقد وجـدت الفرصـة لتنتج الحبـوب لمعاشها(٢) واذا صحت هذه الرواية فانهاولا شك تعطى فكرة واضحة عن نتـائج سياسة الخليفة القبلية فى المجال الاقتصادى .

أمدرمـان وسياسـة التهجير

تكتسب دراسة نتائج سياسة التهجيربالنسبة لامدرمان اهمية خاصة ، اولا لان امدرمان كانت عاصمة الدولة وحاضرتهـاالتى اتجهت نحوها مجموعات كبيرة من المهجَّرين ، وثانيا لان الهجرة كانت ذاتآثار عميقة على الاوضاع فى أمدرمان .

لقد تضافرت عوامل عـدة ، استراتيجية وغيرها ، لتجعل من أمدرمان عاصمة للدولة المهدية(٣) وبصورة مجملة يمكنأن نقول أن أمدرمان كانت من الناحيـة الاستراتيجية تمتاز على الخرطوم بانها لمتكن تفصلها عوائق طبيعية عن منـاطق الغرب حيث السند الطبيعى لدولة الخليفةكما كانت تتمتع باتصال مباشر مع مناطق الشمال والجنوب والجزيرة والبطانة حيثيتشكل النيـل الرئيسى والنيلان الابيض

---

١ ــ صلاح التجانى ، ١٢٤ .

٢ ــ Slatin, op. cit., 450.

٣ ــ ابوسليم ، تاريخ الخرطوم ، الفصل الخامس « امدرمان العاصمة » ص ٨٣ .

S. Mazari : "Greater Khartoum" in "The New Metropolis in the Arab World", by M. Berger (ed) London K.N.Y., Allied Publishers, 1963.

F. Rehfisch : "A sketch of the Early History of Omdurman" S.N.R. No. 45, 1966, P. 41.

M. W. Kuhn : "Markets & Trade in Omdurman" Unpublished Ph. D. Thesis, Los Angeles, 1970, P. 22.

والازرق بالاضافة الى الطرق البرية وسائل ومحاور هامة للنقل والتجارة والحياة الاقتصادية عامة .

ويعود ارتباط أمدرمان بسياسة التهجير الى أيام نشأتها الاولى حين انتقلت اليها العاصمة من الخرطوم وحين أصر الخليفة على سكان الخرطوم فى مايو ١٨٨٥ بالانتقال الى أمدرمان . وكانت هذه بداية النهاية لخرطوم التركية وقد استثنى الخليفة الاشراف من ذلك(١) ولعله قصد بذلك الاحتفاظ بمسافة بينه وبين هذا العنصر المعادى له ولعل لهذا الارتباط بما فعله فيما بعد حين طرد بعضهم من أمدرمان ، وهذا يؤيد ما ذهبنا اليه من قبل من ان سياسة التهجير وسيلة فى الحكم والادارة(٢) .

وقد مرت أمدرمان بأطوار مختلفة فمن مجرد معسكر حربى صارت مركزا لتجمع سكانى ضخم فى حجمه معقد فى تكوينه اذ نجد (Rossignoli) الذى وصل اليها فى سنة ١٨٨٦ يقول انها امتدت لمسافة ستة كيلومترات على طول النهر وبقدر عدد سكانها بانه يتراوح ما بين ١٢٠٫٠٠٠ الى ١٥٠٫٠٠٠ نسمة وذلك فى غير فصل الشتاء حين كان الناس يخرجون للزراعة ــ لغير الزراعة كان الخليفة يضع قيودا شديدة على حركة السكان الى خارج أمدرمان ــ وفى سنة ١٨٨٨ امتدت المدينة مسافة ثمانية كيلومترات لتقترب من جبال كررى واصبحت تغطى مساحة عشرين كيلومترا مربعا تقريبا(٣) وتشير تقديرات أخرى الى أن سكان أمدرمان قبل حضور اهل الغرب يتراوح بين ١٥٫٠٠٠ الى ٢٠٫٠٠٠ ولكنه فى سنة ١٨٩٥ بلغ ٤٠٠٫٠٠٠ نسمة(٤) . والى جانب ماتعكسه هذه التقديرات من تضخم سريع فى السكان فاننا لو اتخذنا هذا النمو السريع فى مساحة المدينة واتساعها

---

١ ــ ابوسليم ، تاريخ الخرطوم ، ٨١ ــ ٨٢ .

٢ ــ للتعرف اكثر على سياسة الخليفة نحو مدن العهد التركى التى سقطت فى ايدى الانصار وسكانها انظر شحاته ، ص ١٢٥ ــ ١٢٩ «تخريب سنار».

٣ ــ Refisch, op. cit., pp. 42, 43, 45.
M. Kuhn, op. cit., 25.
Slatin : Intellegence Report Egypt, March 1895. Complied from the Statements of Slatin Basha :—
حيث يقول انه كان بامدرمان ٤٠٫٠٠٠ من العرب يخرج ٧٥٪ منهم عقب الخريف للزراعة .

٤ ــ ابوسليم ، تاريخ الخرطوم ، ٨٦ ، ينبغى ان نأخذ فى الاعتبار مجاعة سنة ١٢٠٦ ــ ١٨٨٩ فى هذه الزيادة ، انظر ص ٦٣ من هذا البحث .

الجغرافي كمؤشر للنمو السكانى لـكان معنى هذا أن أمدرمان قد نست سـكانيا فى الفترة الوجيزة منذ سقوط الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ بصورة غير طبيعية خاصة لو اخذنا فى الاعتبار عوامل مثل قلة سكان البلاد عمـوما فى ذلك الوقت وصغر حجم المـدن السودانية فى القرن التاسع عشر • وعليـه يصبح من المعقـول ان التضخم السكانى السريع لامدرمان لم يحدث بسبب نمو طبيعى للسكان ولا بسبب هجرة الافراد العادية لان هذه حتى عندما تتوفر العـوامل المساعدة لها ــ مثل فرص العمل الخ •• ــ لا تكون بالمعدل الذى يعكس هذا التوسع الشـديد فى مساحة المدينة وحجمها السكانى فى هذه الفترة الزمنيـة القصيرة ونحن نعلم ان أمدرمان لم تـكن الظروف المساعـدة أو الشخصية لهجرة الافـراد مواتيـة فيها بالدرجة التى تجعلها مركز جذب قوى لمن يهاجرون بطوع ارادتهم اذ كانت الحياة الاقتصادية تمر بفترة ركود(١) • لذلك يمكن أن نقول بلا تحفظ ان هذا المعدل المرتفع للغاية للنمو السكانى لامدرمان يعود أساسا الى سياسة التهجير ، علما بأن افراد القبائل الذين اشتركوا فى حصـار الخرطوم لم يستقروا كلهم فى العاصمة الجديدة ، بل عـاد معظمهم الى ديارهم(٢) • على انه يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن من ضمن الاسباب فى هـذا النمو السكانى السريع ان أمدرمان ورثت وظيفة العاصمة واصبحت مقرا للحـكم والادارة ولم تكن مدينة عادية(٣) وان كان الخليفة من الناحية الاخرى قد طرد بعض أولاد البلد من عاصمته • وهنا يبرز تساؤل عن مدى تأثير سكان الخرطوم بعد سقوطها الى أمدرمان فى تضخيم الحجم السكانى للعاصمة الجديدة • يبدو ان هذا التأثير كان محدودا ، فلو أخذنا اكبر تقدير لعدد سـكان الخرطوم فى العهـد التركى وهو ٥٠٫٠٠٠ (٤) لوجدناه لايزيد عن ٤١٢/٣٪ من سكان أمدرمان حسب التقدير الاقل (Rossignoli) هـذا اذا افترضنا ان جميع سكان الخرطوم قد تم تهجيرهم الى أمدرمان •

---

١ ــ ابوسليم ، تاريخ الخرطوم ، ١٠٥ .

٢ ــ نفسـه ، ٩٩ .

٣ ــ Kuhn, op. cit., 124.

٤ ــ ابوسليم ، تاريخ الخرطوم ، ٤٤ . يشير المؤلف الى ان احد الرحاله قدر عدد الوطنيين من سكـان الخرطوم فى أواخر العهد التركى بخمس العدد الكلى لسكان المدينة اى عشرة آلاف (أليس هـذا قريبا) بمعنى ان سكان المدينة فى ذلك الوقت كانوا حوالى الخمسين الفـا .

فاذا أخذنا فى اعتبارنا ان نسبة عالية من الذين كانوا فى الخرطوم يوم الفتح لم يستقروا بأمدرمان وان نسبة القتلى فى ذلك اليوم الى مجموع عدد السكان كانت عالية للغاية(١) فلاشك ان هذه النسبة ستنخفض انخفاضا كبيرا جدا .

ولا ينبغى ان يفوتنا هنا ان نذكر ان تقديرات Rossignoli لعدد سكان أمدرمان انما تعكس الاوضاع فى عام ١٨٨٦ حين كان الخليفة فى اول عهده ، وفى وقت لم تكن سياسة التهجير قد فرضت تأثيرها الكامل على الاوضاع السكانية فى أمدرمان(٢) .

وعموما فان المصادر تؤكد ان تهجير القبائل هو السبب الرئيسى فى تضخيم عدد سكان أمدرمان ، ورغم أننا لا نتوقع وجود أرقام دقيقة أو مقاربة للدقة عن حركة التهجير ، الا أن بعض التقديرات التى ترد فى المصادر المختلفة — رغم ما فيها من تفاوت — تعطى فكرة عامة عما حدث . فماكمايكل(٣) يقول ان عدد التعايشة الذين حضروا طواعية بلغ اربعة وعشرين الفا وان قبيلة الجوامعة باكملها حضرت الى أمدرمان وقد تم ترحيل الجزء الاعظم من كل قبيلة ، اما اوروالدر فيقول ان عدد المحاربين فقط من التعايشة كان سبعة آلاف ، وان من هاجر من الرزيقات بقيادة موسى مادبو بلغ ثلاثين الفا(٤) وفى خطاب من الخليفة لابى عنجه فى ٨ محرم ١٣٠٦ ذكر ان التعايشة « حضروا باكملهم حتى لقد يبلغون من عائلة المجاهد نحو ستين الفا »(٥) . وقد ارسل محمود وداحمد الى الخليفة قائمة بالقبائل التى هجّرها حوت أسماء تسعاً وخمسين قبيلة(٦) .

وقد سبق ان اشرنا الى أن سكان أمدرمان زاد عددهم بسبب سياسة التهجير من ١٥٫٠٠٠ — ٢٠٫٠٠٠ الف الى ٤٠٠٫٠٠٠ فى فترة عشر سنوات فقط منذ فتح الخرطوم(٧) .

---

١ — نفسه ، ٧٩ .

٢ — كان ميعاد الهجرة الاولى فى عهد الخليفة فى ايام عيد الاضحى ١٠ — ١٤ ذو الحجة ١٣٠٢ الموافق ٣٠ ديسمبر ١٨٨٥ — ٣ يناير ١٨٨٦ « شحاته ، ١١٧ » .

٣ — Mac-Michael, op. cit., 47.

٤ — Ohrwalder, op. cit., 396.

٥ — شقير ، ١١٢٩ : التناقض والاختلاف فى الارقام ربما كان الى جانب اسباب اخرى يعود الى انها غالبا تعكس الحقائق فى اوقات مختلفة .

٦ — محمود عبدالله ابراهيم ، ٣٦ . لعل المقصود مجموعات تمثل تسعا وخمسين قبيلة .

٧ — انظر ص ٥٩ .

ولقد تميزت أمدرمان فى نشأتها وتكوينها بانها خضعت لعوامل غير التى تخضع لها المدن التى تنشأ تدريجيا وفى ظل ظروف طبيعية وكان من اهم اسباب ذلك سياسة التهجير التى لم تؤثر فى عدد السكان فحسب بل امتد اثرها الى الجوانب الاخرى من المسألة السكانية .اذ نجد مثلا ان الخليفة حين احضر التعايشة الى أمدرمان اضطر الى طرد سكان المنطقة بين الجامع والطابية واعطاها للتعايشة وأعطيت لاولئك أرض أخرى مع وعد بالمساعدة فى البناء الامر الذى لم يحدث(١)

وقد أدت سياسة التهجير الى وجود نسبة عالية من التنوع السكانى فى أمدرمان وقد تمثلت فيها تقريبا كل قبائل السودان، ولكن اكبر المجموعات القبلية كانت تمثل القبائل التى طبقت عليها سياسة التهجير باصرار •

وأدت المجاعة الشهيرة فى سنة ١٣٠٦هـ / ١٨٩٩م الى زيادة عدد سكان العاصمة اذ ظن الناس فى الاقاليم انهم سيجدون قوتهم فيها(٢) ولما كانت سياسة التهجير من أسباب المجاعة فانها تكون قد ادت أيضا الى زيادة سكان أمدرمان من هذه الناحية غير المباشرة •

كانت القاعدة الاقتصادية لامدرمان أضعف من أن تتحمل كل ذلك الثقل السكانى ، اضيق فرص العمل بها ولان المهجّرين الذين أرسلوا الى أقاليم مثل الجزيرة قد انهكوا المناطق التى كانت تمون العاصمة وتسندها اقتصاديا ، وينبغى أن نذكر هنا أن أمدرمان قبل المهدية لم تكن مركزا لتجمع سكانى هام مما يؤكد أنها لم تكن تملك البنية الاقتصادية القادرة على تحمل هذا الحجم السكانى الكبير •

بالاضافة الى ذلك فان الخليفة ، كما سبقت اليه الاشارة ، كان قد أبعد بعض اولاد البلد من أمدرمان وكان هذا يعنى حرمان المدينة من بعض العناصر النشطة الطموحة التى أثبتت فى الماضى أن لها دورا هاما وحيويا فى الحياة الاقتصادية فى المدن السودانية ، ولا شك أن وجود هذا النوع من الأشخاص ضرورى جدا وهام

١ - Holt, The Mahdist State, 254.
٢ - Slatin, op. cit., 450.
Rehfisch, Sudan Notes & Records 48, P. 42 Rehfisch, op. cit., 43.
Slatin, op. cit., 452; 455.
Holt, The Mahdist State, 193.

...ور ... وهم يذكروننا بالتجار الذين كونوا الطبقة الوسطى التى أدت الى ازدهار المدن الاوربية فى الماضى .

ولاشك أن وجود هذه الاعداد الضخمة من أفراد القبائل المهجَّرين فى المدينة منذ نشأتها ونمو أعدادهم بمعدلات هائلة فى فترة وجيزة للغاية قد أدى الى تعطيل تطور المدينة وتقييدها بمستويات متواضعة للغاية من حيث تنظيم الاوضاع السكانية ومن حيث النواحى الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية .

فتوسع المدينة وتزايد عدد سكانهابهذه السرعة لم يتح له الفرصة لايجاد جهاز ادارى مناسب يعنى بمشاكلها ولم ينشأ مثل هذا الجهاز أو النظام الادارى حتى سقوط أمدرمان سنة ١٨٩٨ ، ولو نشأ هذا الجهاز فلاشك أن مهمته كانت ستكون بالغة الصعوبة ، كذلك لم تجدعاصمة الخليفة الفرصة لكى تطور بنيتها الاقتصادية والاجتماعية وقد نتج عن كل ذلك ما تصفه المصادر المختلفة من الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية .

لقد كانت أمدرمان تفتقر الى عنصرهام فى حياة كل مدينة ، توفر الاحساس بالانتماء اليها والارتباط بها بين القطاع الاعظم من سكانها ، ولم يكن مثل هذا الاحساس موجودا لدى المهجَّرين ، بل كانوا غير راضين عن وجودهم بها . وبالاضافة الى دور العوامل الاخرى مثل الزهد الذى طبع المهدية والمشاكل الاقتصادية ... الخ فان سياسة التهجيرساعدت على تعطيل التطور السكانى والعمرانى لامدرمان بسبب هذا الشعوربعدم الانتماء عند الغالبية من السكان مضافا اليه رغبتهم الدائمة فى العودة الى ديارهم . كما انه من الناحية العملية لم يكن من السهل تنظيم عمران المدينة ــ حتى ولو توفرت الرغبة والمقدرة على ذلك ــ بسبب ضخامة عدد المهجَّرين وضيق الفترة الزمنية التى حضروا فيها . لذلك اكتفى المهجَّرون بمساكن شبه مؤقتة وبمستويات صحية ... الخ متواضعة ولقد كان المهجَّرون فى أمدرمان اشبه بجيوش كبيرة فى منطقة تجمع عسكرى ، وهذا فى الواقع يعكس حقيقة وضع أمدرمان الى حد كبير ، لذلك لم يكن العمران بمعناه المدنى واردا لا فى التصور ولا فى التطبيق .

خاتمـــــة :

رغم ما تجمع عليه المصادر من ضخامة الاعداد التى شملها التهجير ، يبدو أن هذه الحركة كانت ، على الاقل من ناحيةالوجود الفعـلى للقبائل فى المناطق التى هُجِّرت اليها ، ذات نتائج مؤقتـة الىحد كبير • ولعل فى هذا مؤشر مناسب يوضح ان سياسة التهجير لم تكن سياسةقوية الارتباط بواقع البـلاد وظروفها • فلقد كانت هزيمة جيوش الخليفة فى كررى تعنى بالنسبة للمهجَّرين بداية رحـلة العودة الى الديار(١) واستمرت هذه الحركة فى حوالى سنة ١٩٠٤(٢) •

ولكن رغم سلبياتها المختلفة فان سياسة التهجير كانت تعكس مرحلة هامة فى التطور التاريخى لانصهـار المجموعات السودانية المختلفـة فى كيان واحـد • اذ كانت هذه السياسة ، من حيث فكرتهاالعامة ، تعنى محاولة لايجاد ولاء موحد لزعامة سياسية واحدة للبلاد كلها ، أما من الناحية العملية فكانت تعنى بداية التحام مادى بين المجموعات والقبائل المختلفة •

---

١ ـ تحتاج حركة العودة هذه الى دراسة متعمقـة ، والصعوبة الرئيسية هنا هى شح المعلومات عنها ، على ان سياسة التهجير لا يكتمل فهمها ، فيمايبدو ، الا بتفهم ما حدث للمهجرين عقب انهيـار دولة الخليفـــة .

٢ ـ Henderson "The Migration of the Missiria into the South-West of Kordofan" Sudan Notes & Records 22, I, 1924, p. 70.

A. Gaffar Mohamed A., op. cit., 104.

Reid "Some Notes on the Tribes of the White Nile Province" S. N. R. 13, II, 1930, p. 180.

Reports on Administration, Finance and General Condition of the Sudan, Four Years 1902 (Berger, p. 242), Dongola, p. 252), (Gezira, p. 33) (Kordofan, p. 31) 1904 (Kordofan, P. 61).